مختارات من السياسة العالمية

(٢)

ليون فيكس

الجزائر

حتف الاستعمار

ترجمة

محمد عيتاني

مكتبة المعارف في بيروت

مختارات من السياسة العالمية

(٢)

ليون فيكس

الجزائر
حتف الاستعمار

ترجمة

محمد عيتاني

منشورات

مكتبة المعارف في بيروت

مختارات من السياسة العالمية

سلسلة مختارة لأشهر الكتاب تعالج اهم مشاكل العالم بصورة عامة والبلاد العربية بصورة خاصة تعنى بنشرها مكتبة المعارف في بيروت

صدر منها :

١ ــ المسألة اليهودية　　كارل ماركس　　٠٧٥
٢ ــ الجزائر حتف الإستعمار　　ليون فيكس

مقدمة

الجزائر ليست فرنسا

●

إن الأحداث التي تجري في افريقيا الشمالية تضع هذه البلاد في المرتبة الأولى من الأهمية ، على الصعيد السياسي والدولي .

فبعد تونس ومراكش ، تراق الدماء يومياً في الجزائر .. وتجري عمليات عسكرية حقيقية في بضع مناطق تعادل مساحتها مساحة عدة مقاطعات فرنسية. وتُستدعى ، دون انقطاع، بمثابة نجدات ، قوات مسلحة تسمى « قوات لحفظ النظام » .

وتغص السجون « بالارهابيين » « والمشبوهين » . وطوال ساعات النهار ، ينكل رجال البوليس بالناس ، وتصدر المحاكم الاستعمارية الأحكام . ويطارد المناضلون القوميون والشيوعيون ، وتعطل الصحف التقدمية ،وتصادر ؛ فان كان ثمة داخل الحكومة الفرنسية رجال يحسبون بأنهم يقضون بهذه الأعمال على الحركة الوطنية الجزائرية، فلا شك في انهم بدأوا يغيرون آراءهم، ذلك لأن التدابير المتخذة لم تؤد إلاّ الى زيادة خطورة وضع كان في السابق جدياً تماماً .

فهل تستنتج الحكومة الفرنسية من هذه الحالة الواقعية ، التي لامجال لإنكارها ، النتائج المترتبة عليها ؟

أنها تتظاهر بمفاوضة الحكومة التونسية ، وتصرح بأنهـا تبحث عن اسلوب لمناقشة المراكشيين. ولكن موقفها أبعدمايكون هو نفسه ، فيما يختص بالجزائر .

وعلى هذا النحو بيّن « مانديس فرانس » أثناء مناقشة جرت في الجمعية الوطنية الفرنسية ، في ١٢ تشرين الثاني ١٩٥٤ ، الفرق القائم في نظره بين الجزائر والبلدان الأخرى من بلدان المغرب العربي ، قال :

« ان بضعة نواب قد قاموا بمقابلة وتقريب بين السياسة الفرنسية في الجزائر وتونس . انني اؤكد بأن ليس ثمة ما هو اكثر خطأ وضلالاً من هذه المقارنة ، وليس ثمة ما يدانيها في الخطورة... فتونس بلد أجنبي نقوم بحمايته ، أما الجزائر ..فهي فرنسا» .ولقد صرح وزير الداخلية ، من جهته ، قبل ذلك بأيام : « إن الجزائر هي فرنسا . وليس ثمة أي قضايا سياسية تطرح بالنسبة الى الجزائر الا بمقدار ما تطرح قضايا بالنسبة الى البواتو Poitou أو البريتاني Bretagne . »

ومؤكد ان هذه الفكرة ليست جديدة . فمنذ اكثر من قرن ، خدمت لمحاولة تبرير افظع مظالم المستعمرين في الجزائر . ولكن منذ بضع سنوات أخذ المستعمرون يعبرون عنها بصورة أكثر فظاظة . وذلك على وجه التخصيص ابتداء من افلاس السياسة المسماة سياسة « الاهتضام » ذلك الأفلاس الذي اعترف به

الجميع . ومنذ منح الجزائر، عام ١٩٤٧ ، نظاماً جديداً خاصاً.
وهو وإن كان يختلف كثيراً عن النظام الذي اقترحه الشيوعيون، عندئذ.
علم الناس جميعاً، بأن الجزائر ليست فرنسا. فالسيد ماندس فرانس
ووزير داخليته لم يقوما – اذن – الا باستخراج شعار« من القبر»
لخدمة غايات سياسية خرقاء ، شعار أكل الدهر عليه وشرب ،
حين يزعمان ان « الجزائر هي فرنسا .»
ومع ذلك فهذا لم يمنع الصحافة المأجورة كلها ، من صحيفة
«الشعبي» le Populaire حتى الفيغارو، ان تستعيد لحسابها الخاص
هذا الشعار . بل لقد استنجد المستعمرون «بجول رومان»
Jule Romains ليحاول ان يوجد لهذا الشعار تبريراً « تاريخياً ».
وعضو المجمع هذا، المستعد دائماً لخدمة أحط أعمال البورجوزية.
كتب في صحيفة « الأورور» عدة مقالات سافلة ، ذات صبغة
عرقية صارخة ، تهدف الى منح المستعمرين الفرنسيين حق
ملكية الجزائر زاعماً بأن « الغزو الفرنسي للجزائر لم يكن إلا
بداية « لحملة الإستعادة » هذه التي هي مشروعة تماماً مثلما
كانت مشروعة « حملة الاستعادة » Reconquista التي شنتها
اسبانيا على العرب في اواخر العصور الوسطى » !
وعلى الرغم من ان دعاية كهذه لا ترتكز على اي اساس جدي ، او
على مجرد اساس شريف ، فلا يمكن مع ذلك ان نمر بها مروراً
عابراً . فهي تجد في الواقع أرضاً خصبة ، في الأكاذيب والأفكار
المسبقة والأوهام الراسخة في عقول الشبيبة الفرنسية ، منذ المدرسة
الإبتدائية، عن طريق التعليم الرسمي . وهي اكاذيب واوهام ،
تقود كثيراً من الفرنسيين ، بمن فيهم من الشغيلة ، الى التفكير ،

عن حسن نية، بأن الجزائر هي، بالفعل، مؤلفة من ثلاثة مقاطعات مماثلة « للسين والواز » ، « والفوكلوز » ، وان جميع الجزائريين هم مواطنون فرنسيون ، تماماً مثل الباريسيين او المرسيليين، وان رسالة فرنسا التمدينية « قد اتاحت في الجزائر ، افادة ملايين الناس من خبرات الثقافة ، والتكنيك ، والعلم الفرنسي، موزعة الرفاهية، والسلام حيث لم يكن ثمة، منذ مئة وخمسة وعشرين عاماً سوى البؤس والفوضى . »

والحقيقة هي بخلاف ذلك تماماً. ان الجزائر ليست فرنسا ، بل هي حقاً بلد يستعمره ويستثمره ويضطهده المستعمرون الفرنسيون . ولقد انحصرت « رسالة هؤلاء التمدينية بصورة جوهرية ، بمنح الجزائر هذا الطابع ، بوصفها بلداً مستعمراً ، وابقاء هذا الطابع . وهذه « الرسالة التمدينية » عبر عنها ، في ١٢ تشرين الثاني عام ١٨٣٠ ، الجنرال جيرار وزير الحربية في عهد شارل العاشر ، على هذا النحو ، بعد أربعة اشهر تقريباً من الاستيلاء على الجزائر :

«إن هذا القرار (أي الفتح) يرتكز على أهم الدوافع المرتبطة اوثق الارتباط بحفظ النظام الإجتماعي في فرنسة بل وفي اوروبة : وذلك عن طريق فتح منفذ واسع لفائض السكان عندنا وتصريف منتوجات مصانعنا لقاء منتوجات اجنبية أخرى ، غريبة عن ارضنا ومناخنا .» ها نحن بعيدون عن السبب المبين في كتب التاريخ المدرسية في موضوع غزو الجزائر : وهو الثأر لإهانة — ضربة مروحة — لحقت بقنصل !

لقد كانت غايات البورجوازية الفرنسية — اذن — منذ عام ١٨٣٠ واضحة تمام الوضوح .

اقتصاد من طراز استعماري

●

ان الاقتصاد الجزائري بكامله هو ، بصورة نموذجية ، اقتصاد مستعمرة للاسكان وللاستثمار .

ولضمان منفذ واسع « لفائض السكان عندنا » ، ذلك الذي كان يحلم به الجنرال جيرار ، طرد – بأشكال مختلفة – الفلاحون الجزائريون من نصف اراضيهم، وأعطيت هذه للمستعمرين . فمن اصل مساحة قدرها واحد وعشرون مليوناً من الهكتارات ، لاتدخل فيها اراضي الجنوب ، ثمة ثلاثة ملايين هكتاراً يملكها ، في الواقع ، الاستعمار الخاص – الملكيات الفردية او الشركات – واكثر من سبعة ملايين هكتار تحتكرها الدولة او البلديات في شكل املاك حكومية .

ومفهوم بالطبع ان المستعمرين قد استولوا على الأراضي الأكثر خصوبة ، أراضي السهول ، وعليها يمارسون الأعمال الزراعية التي تغل أكبر قدر ممكن ، دون اي اهتمام بحاجات السكان الجزائريين . تلك هي ، مثلا ، حالة الكرمة : فعلى حين ان اكثر من ٨٠ بالماية من الجزائريين لايشربون الخمر ، فان

زارعي الكرمة في الجزائر ينتجون كل عام حوالي عشرين مليون هكتولتر، جاعلين بذلك من الصعوبة اكثر فأكثر تصريف منتوجات صغار الكرامين الفرنسيين والمتوسطين منهم .

أما الملاكون المسلمون ، فان ثلاثة أرباعهم (٣٩٠٠٠٠) يملكون، بصورة وسطية، اقل من خمسة هكتارات من الأرض لكل واحد ، وهذا ما يعترف رسمياً بأنه غير كاف للمعيشة . وثمة ١١٥٠٠٠٠ جزائري آخرون فوق الخامسة عشرة من أعمارهم، يعيشون في الأرياف، ولا يملكون شيئاً من الأرض ، وشطر كبير منهم هم خماسون (يعني عمالا زراعيين) يعملون لقاء ٣١٥ فرنكاً في اليوم . وهذا هو في الواقع ، الأجر الرسمي في المنطقة الثالثة التي تشمل شطراً كبيراً من أرض الجزائر . وهي ٣١٥ فرنكاً وهي – إذا دفعت بالفعل – يجب ان تكفي لإعالة اسرة كاملة ، نظراً لأنه ليس ثمة تعويضات عائلية ، ولأن تكاليف المعيشة مساوية تقريباً لما هي عليه في فرنسا. والنائب الراديكالي موريس فيوليت ، الذي كان سابقاً حاكماً عاماً للجزائر ، اعترف ، اثناء مناقشة جرت في الجمعية الوطنية في ١٠ كانون اول الماضي قائلاً « انها لحالة فاجعة حقاً ... لقد استطعت ان ارى ، كما تستطيعون ان تروا انتم أنفسكم إذا ذهبتم الى الجزائر ، حالة البؤس التي دُفعتْ اليها الأكثرية الساحقة من السكان هناك : فثمة الأكواخ المبنية من اغصان الشجر ، والغطاء المهلهل المفروش على الأرض، والأدوات المنزلية البدائية ، ولا اثاث هناك ...»

وفي موضع تال من خطابه ، يقول :

« وكيف لا يتأثر الانسان تأثراً عميقاً لحالة الفلاح البائس الذي يعمل بوسائل بدائية الى ابعد حد، ويحرث بها الصخور التي طرد اليها ؟. وكيف لا يذهل الانسان لمرأى هذه المرأة التي ترتدي الأسمال ، وتساعد حيوانات الجر في جهدها الشقي لحراثة بعض الحواكير الصغيرة ، بمحراث غالباً ما يكون من خشب ، محراث يصطدم في كل لحظة بالصخر الذي يبرز الى سطح الأرض ، أو بشجر المقل الذي يستحيل استئصاله ؟ وغلة هذه الأرض هي غلة ضئيلة هزيلة تتراوح بين أربعماية وخمسماية كيلوغراماً في الهكتار ، وأحياناً لا تنتج ما يعادل البذار . الاستحالة المادية للعيشة، والأسمال، هذا هو نصيب الأكثرية الساحقة من السكان . »

وهذه المشاهدات التي يتحدث عنها احد انصار الإستعمار المتحمسين لا تحتاج إلى تعليق .ونكتفي فنضيف ان عدد العمال الزراعيين (الخماسين) ، بل وعدد الملاكين الصغار الذين يهجرون مساكنهم نازحين إلى المدن ، يتزايد أكثر فأكثر ، طلباً لعمل يستحيل العثور عليه في اغلب الأحيان ، نظراً لأنه يوجد في الجزائر في هذه الأيام مئات الألوف من العاطلين عن العمل ، وهناك عشرات الألوف ينفون انفسهم إلى فرنسة حيث يأتون ليزيدوا عدد الـ ٤٠٠٠٠٠ جزائري الموجودون هناك من قبل .

وهذه صفة اولى من حسنات الطابع الاستعماري للأقتصاد الجزائري .

والصفة الثانية : ان الجزائر هي بالنسبة الى الرأسمالي الفرنسي مثلما كان يتمنى الجنرال جيرار عام ١٧٣٠، منبع « للمنتوجات الأجنبية عن ارضنا ومناخنا » فلقد صدرت الجزائر ، في العام الماضي ، بالإضافة إلى ٤٠٠ ٠٠٠ طن من البرتقال واليوسف افندي وسواها من الثمار ، ٣ ٢٠٠ ٠٠٠ طن من الحديد الخام من أصل ٣ ٣٠٠ ٠٠٠ طن استخرجت، و ٥٦٠ ٠٠٠ طن من الفوسفات من أصل ال ٦٠٠ ٠٠٠ طن .

وتدل هذه الأرقام على أن الجزائر لا تملك صناعة أساسية . والصناعة الضعيفة القائمة ، والخاضعة للتروستات الفرنسية ، لا تنتج شيئاً من شأنه إزعاج الإحتكارات في « الوطن الأم » ، لا الفولاذ مثلا ، ولا المنسوجات القطنية ، وهذا أيضاً من الخصائص النموذجية لبلد مستعمر .

ومن السهل ان نفهم ان الرأسماليين الفرنسيين ، سعيا وراء أقصى الأرباح ، لم يصنّعوا الجزائر . وهذا يتيح لهم ، من جهة ، نهب ثروات باطن الأرض الجزائرية لمصلحة صناعتهم في فرنسة ، كما يتيح لهم ، من جهة مقابلة ، تصريف منتوجات مصانعهم» . والواقع ان الجزائر تتلقى من فرنسة جميع حاجاتها تقريباً ، من السيارات والآلات ، ومواد البناء ، والمحروقات الخ .. وعلى هذا النحو ، وبفضل التنظيم الضريبي والإقتصاد المفروض على الجزائر ، فان أكثر من ٧٠ بالماية من تجارة الجزائر سواء من حيث الاستيرادات ام التصديرات ، يجري مع فرنسا . ولقد بلغ حاصل التجارة بين البلدين ، عام ١٩٥٣ ، ٢٦٦ مليار

من الفرنكات :

ومن جهة اخرى ، فمجموع الرساميل العامة والخاصة الفرنسية التي جرى توظيفها في الجزائر يبلغ — حسب الأرقام الرسمية — ٤٠٠٠ مليارا من الفرنكات .

وإليك أخيراً الأرباح التي اعترفت بها ٢٤ شركة تمارس الشطر الأكبر من نشاطها في الجزائر :

عام ١٩٤٧	٤٦٢ مليون فرنك
عام ١٩٤٨	١٢٨٧ مليون فرنك
عام ١٩٤٩	١٧١٩ مليون فرتك
عام ١٩٥٠	٢٠٢٣ مليون فرنك
عام ١٩٥١	٣١٣٨ مليون فرنك
عام ١٩٥٢	٦٥٧٩ مليون فرنك

وهكذا تتضح لنا أهمية الجزائر بالنسبة الى أصحاب التروستات الفرنسية ، وبوجه خاص لجماعة بنك الإتحاد الباريسي — ميرابو ، صاحب السلطة المطلقة في الشركات التعدينية الكبرى ، وخصوصاً في مناجم الحديد في ونزا (وقد اعترفت الشركات بـ ٣٤٠٠ مليون فرنك من الأرباح) وكذلك لإتحاد المناجم ، وهو مصرف الشركة الفرنسية لمناجم الفحم ، المسيطر على فوسفات قسطنطينة (١٧٧ مليوناً من الأرباح عام ١٩٥٣) ، اما جماعة روتشيلد الذين عينوا رينيه ماير « دماغاً نظرياً » في خدمتهم ، فهي تسيطر في الواقع على احتكار التجارة الخارجية مع الجزائر وعلى اسهم هائلة في المناجم وفي مختلف الصناعات ، وكذلك تتضح لنا اهمية الجزائر بالنسبة الى بنك باريس والبلاد الواطئة ،

وبنك الهند الصينية، اللذان يملكان هما ايضاً مصالح ضخمة في شركات كبرى تعمل في الجزائر :

ان الجماعات المالية في فرنسة ، وقد اخذت ترتبط اكثر فأكثر بالرأسمال الأميركي ، تتقاسم مع الرأسماليين ملكية الأراضي المستعمرة ، مثل الشركة الجزائرية (٧٠٠٠٠ هكتار من الأرض) وملكية الكيرولي التي تنتج كل عام ٦٠ ٠٠٠ هكتو لتر من الخمر ، والشركة الجنفوازية (٢٠ ٠٠٠ هكتار من الأرض)

وأراضي « التراب » وشابود دي جاندرم « التي تملكها أسرة بورجو — والمعروف ان احد أعضاء هذه الأسرة عضو في مجلس الشيوخ ، ونائب رئيس الحزب الراديكالي ، والقطب الأكثر ضراوة ووحشية من اقطاب الإستعمار الزراعي .

وكذلك هي الحال فيما يختص بعض نواحي الإنتاج التي تحتكرها بعض الشركات الضخمة. وهكذا فشركة «الهامندات» تملك ٥٠ ٠٠٠ هكتاراً من غابات شجر الفلين ، وهكذافنائب الجزائر « المستقل » الملياردير بلاشيت، يرأس الشركات التي تحتكر استثمار الألفا .

هؤلاء هم بعض المالية سيداً من سادة الأرض ، والمناجم ، والنقليات ، والأموال ، الذين غالبيتهم من مستثمري العمال الفرنسيين انفسهم ، والذين يسيطرون على الجزائر ، باذلين أقصى الجهود لتغطية أرباحهم الهائلة تحت شعار «رسالة فرنسة التمدينية »

رسالة فرنسا التمدينيّة

•

«وتسألني ، في فقرة من رسالتك، عما نفعله بالنساء اللواتي نأسرهن . فاقول إننا نحتفظ ببعضهن بمثابة رهائن، ونبيع الباقي لقاء الجياد، أو نبيعه بالمزاد كما نفعل بالمواشي .»

«وكنت أحياناً أفرج همومي بقطع الرؤوس ، لا رؤوس الأرضي شوكي ، بل رؤوس الرجال .»

— الكولونيل دى مونتانياك —

« لقد كان الزوج من آذان الوطنيين يساوي عشرة فرنكات ، وكانت نساؤهم طرائد فاخرة في نظرنا . والواقع أننا عدنا ومعنا برميل مليء من الآذان التي جمعناها ، زوجاً فزوجاً ، من الأسرى . »

— الكونت ديريسّون —

ويهتفون في كل مناسبة « انظروا ماذا فعلنا. »

لقد صدر اخيراً مؤلف بديع طبع « وفقاً لإرشادات السيد روجيه ليونارد، حاكم الجزائر العام. » سمي: « الجزائر المعاصرة » ويتضمن، على ورق فاخر، ٢٣٥ صفحة من النصوص والصور الفوتوغرافية، التي وضعت تمجيداً للاستعمار الفرنسي.

وهذا المؤلف يشيد بذكر المدن والمرافئ، والسدود الضخمة، واقنية الري، والمزارع الحديثة، والمدارس، والمستشفيات، وبكلمة مختصرة: لمختلف المشروعات التي حققها الإستعمار. وهذه المشروعات هي مهمة ولاشك. ولكن ثمة سؤال لابد ان يطرحه الأنسان: من الذي يستفيد من هذه المشروعات؟ وهل صحيح كما يؤكد كتاب « الجزائر المعاصرة »: **« أن شرف التمدن الفرنسي إنما يقوم في كونه قد ولّى اهتمامه، في الدرجة الاولى، للانسان، على الدوام. »**

ومن يملك هذه المزارع البديعة التي تتمتع بأحدث الآلات، والتي تبرز من بين الكروم والبساتين في جميع سهول الجزائر الخصبة الغنية؟ من يملك الـ ١٩٠٠٠٠ هكتار من الأراضي المروية تلك التي تمجدها الدوائر الرسمية أعظم تمجيد؟ انها ملك للمستعمرين دون سواهم.

ولمن خصصت العمارات والدارات التي تُستغل حركة انطلاقها المتسارعة لإمتداح الإزدهار في الجزائر؟ انها خصصت بصورة رئيسية لرجال الأعمال، والموظفين، والتجار الفرنسين. وليس ثمة اي مراقب، ولو كان سطحياً، يزور احدى المدن

الجزائرية الكبرى الا ويلاحظ التناقض القائم بين ترف الأحياء الفرنسية ، الذي كثيراً ما يكون معيباً فاضحاً ، وبؤس الأحياء الإسلامية ، والمدن المبنية من التنك والتي تتكدس فيها . وسط شروط معيشة لاتصدق ، عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال .

ولاشك في ان ثمة الطرقات ، والسكك الحديدية ، والمرافيء ، هذه التي يستطيع ان يستفيد منها كل انسان . ولكن هل حاول المستعمرون ان ينشئوا مصالح عامة حقيقية ، كما هو حاصل في فرنسة ، مخصصة ليستخدمها مجموع السكان ؟ ان العكس واضح وضوحاً تاماً ، الى حد ان الحكام أنفسهم لايستطيعون إخفاءه . واليك ما يقول كتاب « الجزائر المعاصرة » في موضوع الـ ٤٣٥٠ كيلومتراً من الخطوط الحديدية الموجودة :

« تتألف الشبكة الجزائرية بصورة جوهرية من خط رئيسي يجتاز البلاد من الشرق الى الغرب ، تتفرع منه طرقات ، تنفذ الى الجنوب (الحوض المنجمي في كولون - بيشار ، مناطق الألفا في الروابي العليا الوهرانية ، وفي الجلفا ، وإقليم النخيل في بيسكرا - ثغور ، او تلك الطرقات المتجهة نحو الشمال والواصلة الى المرافيء . »

وهكذا وبالاضافة الى الغاية الستراتيجية التي بنيت لأجلها شبكة الخطوط الحديدية هذه ، حسب اعتراف الإدارة الإستعمارية نفسها ، لنقل موارد الأرض وباطن الأرض الجزائرية المخصصة للتصدير بصورة رئيسية الى فرنسا ، من المرافيء الجزائرية . وكذلك

هو شأن الطرقات . فحيث تخلو البلاد من ثروات للنهب ، لا يكون ثمة طرقات، و إنما فقط طرق بدائية ضيقة او مسالك .

وعندماحدثت الهزات الأرضية الأخيرة في منطقة اورليانفيل، شهدنا هذه الفضيحة ،وهي احتشاد اكثر من ٨٠٠٠ شخص من السكان – من بني راشد – الذين ظلوا محرومين من اية إغاثة ، طوال ايام كثيرة ، وذلك ، لأنه ، حسب قول الإدارة ، ما كان بامكان أية سيارة الوصول الى هناك لعدم وجود طرق مواصلات.

ويفخر المستعمرون بأنهم أوجدوا المدارس . وصحيح أنهم شيدوا عدداً منها وما يزالون يبنون مدارس جديدة كل عام . ولكن اليك ارقاماً رسمية : إن عدد الأولاد المسجلين في المدارس الآن هو ٤٣٠٠٠٠ تلميذاً من اصل ٢٢٠٠٠٠٠ شخص في سن الدراسة، وهذا معنـــاه أنــ ٨٠٪ من مجموع الاولاد الجزائريين لا يذهبون الى المدارس . والنسبة تبلغ ٩٠٪ عند الاولاد المسلمين .

وبسبب تزايد السكان ، فان عدد الأولاد الذين لايجدون مكاناً لهم في المدارس يزداد كل عام بنسبة بضع عشرات من الألوف . ولقد وضعت الحكومة العامة « سنة ١٩٤٨ » تصميماً لنشر التعليم « على مدى عشرين عاماً، يجري تحقيقه – اذا صدقنا الأنباء الرسمية – «بنجاح تام» . واليك نتيجة مدعومة بالارقام : فبعد ست سنوات من تطبيق هذا التصميم ، سجلت الإحصاءات الرسمية ما يقارب نصف المليون من الأولاد الذين حرموا من ارتياد المدارس.. وهذه الحالة معرضة في الواقع الى ان تستفحل وتزداد خطورة كما

تشهد بذلك ميزانية الجزائر لعام ١٩٥٣ — ١٩٥٤ التي زادت الاعتمادات المخصصة للبوليس مبلغ ٥٧٠ مليوناً من الفرنكات وانقصت الاعتمادات المخصصة للتعليم ٤٥٥ مليوناً ، كما ان المبالغ المخصصة لبناء المدارس قد أنقصت بنسبة ١٤ بالمئة بالنسبة الى السنة السابقة ! ...

ولنضف فقط ، لاتمام هذه الصورة لمأساة الشبيبة الجزائرية ، أن ثمة فقط ٥٠٠ طالباً مسلماً من اصل الـ ٥٠٠٠ طالب في جامعة الجزائر ، وأن التعليم الرسمي كله باللغة الفرنسية . واللغة العربية — رغم أن ٧٠٪ من السكان يتكلمون بهـــا — تعتبر في الواقع بمثابة لغة أجنبية : وليس في هذا ما يدهشنا : فان لينين وستالين قد بينا ، منذ زمن طويل ، ان احد المشاغل الأولى للمضطهدين هي دائماً مهاجمة لغة وثقافة البلاد التي يحاول اخضاعها .

وكذلك يمتدح المستعمرون المشروعات التي حققوها في ميدان الصحة العامة . فلنلق — اذن — نظرة سريعة على هذه المشروعات المحققة ، وفقاً للطريقة الموضوعية الممكنة وحدها ، يعني وفقاً وفقاً لحاجات السكان .

ان السكان المسلمين في الجزائر يتزايدون كل عام بنسبة ٢٠٠٠٠٠ شخص . وليست هذه ، كما يزعم احياناً المستعمرون ، نتيجة من نتائج الرفاهية التي يزعم انها تسود في البلاد ، وانما هي نتيجة لمكافحة السلطات العامة للأوبئة . ومجموع السكان ، الجزائريين يفيدون طبعاً من هذه التدابير . ولكن هنا نتساءل

ايضاً : لأية غاية اتخذت هذه التدابير ؟ هناك شخص كان حاكماً عاماً للهند الصينية ، ووزيراً للمستعمرات ووزيراً للداخلية ، — وهو بهذه الصفة نفسها ، كان مسؤولاً عن ادارة الجزائر — هو السيد البيرسارو ، الذي هو اليوم رئيس جمعية الإتحاد الفرنسي ، يبين هذه الغاية بوضوح في كتابه : « La mise en Valeur des colonics Françaises » الصادر عام ١٩٢٣ :

« إن عمل الاستعمار كله ، إن مهمة خلق الثروات بكاملها ، تهيمن عليهـا في المستعمرات قضية اليد العاملة : فهي الحجر الاساسي للصرح الاقتصادي الذي نريد تشييده .. ومن هنا نشأت الضرورة في ان ننظم ، ونتابع بصورة منهجية ، وفقاً لتصميم حربي ، يقام بوضوح في كل مستعمرة، المعركة القوية العنيدة ضد الامراض ، والأوبئة ، والكوارث من جميع الاصناف ، التي تفتك في بعض المستعمرات ، وخصوصاً في افريقيا ، بشطر كبير من السكان الوطنيين ... ونقول بكلمة مختصرة: إنها ضرورة المحافظة على الرأسمال البشري، وزيادته لكي نستطيع ان نشغل الرأسمال المالي ونستثمره . »

ليس من المستطاع التعبير بأفضل من ذلك . والواقع ان الاستعمار ما ان يستوثق من « زيادة الرأسمال البشري » التي هي ضرورية بالنسبة اليه — وحين يتأكد انه هو نفسه مضمون ضد اصابات الأوبئة — حتى يكف عن بذل اي جهد في سبيل الصحة العامة ، وإليك بعض الأمثلة : — في مدينتي الجزائر ووهران ثمة طبيب واحد لكل ١٤٠٠ شخص من السكان (ثمة ١ لكل ١١٠٠ في مجموع

المناطق الفرنسية (أما في سائر مناطق الجزائر ، فان النسبة هي – حسب الاقاليم – : طبيب واحد لكل ١٠٠٠٠ شخصاً ، و ٢٠٠٠٠ ، و ٣٠٠٠٠ حتى تبلغ طبيباً واحداً لكل ٨٠ ٠٠٠ شخصاً في بعض المناطق والأقاليم الجنوبية .

– في المدن الجزائرية الرئيسية الثلاثين حيث ثمة إحصاء جدي ، نرى عدد وفيات الأطفال الذين هم دون السنة ، من اعمارهم ، هو التالي ، في عام ١٩٥٣ :

– الأوروبيون : ٤٦ وفاة لكل ١٠٠٠ ولادة (في فرنسة ٤١ لكل ١٠٠٠)

– المسلمون : ١٨١ وفاة لكل ١٠٠٠ ولادة

وفي الجزائر حسب الإحصاءات الرسمية ٢٥٠٠٠ سرير مستشفى ، مما يساوي نسبة ٥و٢ لكل ١٠٠٠ شخص من السكان على حين ان النسبة في فرنسة هي ٩ أسرة لكل ١٠٠٠ شخص . والمعروف ان فرنسة تعاني نقصاً في أسرّة المستشفيات .

« المقاطعات الفرنسية الثلاث »

●

هذه الحالة لايرضاها ضحاياها من ملايين الرجال والنساء عن طيبة خاطر . والوظيفة الرئيسية للتنظيم السياسي والإداري في الجزائر هو ، بالضبط ، ضمان أقصى الأرباح للرأسماليين ، مخضعين لنيرهم الأغلبية الساحقة من الجزائريين .

ويحاول المستعمرون ان يستروا هذا الواقع ، الذي لايتمتع ببريق أخاذ على كل حال ، تحت كلمة : « الجزائر ، ثلاث مقاطعات فرنسية » . ثمة في الواقع ، على الصعيد الإداري ، ثلاث مقاطعات ، مع محافظيها ، وعدد معين من قوام المقام . ولكن بهذا ينحصر وجه الشبه مع فرنسا . والواقع انه :

أولا) على رأس الجزائر يوجد احد الموظفين الكبار الذين يشبهون الولاة ، وهو الحـــاكم العام ، الذي « يمثل حكومة الجمهورية الفرنسية » وينفرد بجميع السلطات تقريباً .

ثانياً — ولقد منحت الجزائر ، منذ التصويت على « القانون الأساسي » في الجمعية الوطنية الفرنسية ، — بالاضافة الى الشخصية المدنية والإستقلال المالي — منحت الجزائر تنظيماً يتضمن بصورة خاصة « جمعية جزائرية » ، تصوت على الميزانية :

وكون الحاكم العام هو الذي يعد الميزانية ، وكون هذه الميزانية يجب ان تقرها الحكومة الفرنسية ، لاينتزعان شيئاً من هذه الميزة

ثالثاً: ان المدن والمناطق المهمة هي وحدها التي يدير شؤونها مجلس بلدي ورئيس بلدية ، كما هي الحال في كل دائرة بلدية من دوائر فرنسا . والشطر الأعظم من الأراضي الجزائرية مقسم الى «بلديات وسيطة » ، على رأسها اداريون يعينهم الحاكم العام . وكل اداري تحت امرته جهاز كامل من الموظفين الحكوميين : القضاة ، والآغوات والباش أغوات . وبعض الدوائر البلدية الوسيطة هذه تساوي في اتساعها وعدد سكانها المقاطعات الفرنسية [1]

رابعاً : ان أقاليم الجنوب الجزائرية ، التي تشمل مساحة تساوي ثلاث مرات مساحة فرنسا ، تحكمها السلطة العسكرية .

خامساً : **ان الجمعيات القائمة تؤلف وتنتخب بحيث تمثل مصالح الاستعمار الفرنسي وحدها .**

ويقسم الجسم الإنتخابي الى هيأتين : تتألف الاولى ، من الأوربيين — الرجال والنساء — وكذلك ، وبناء لطلب الأوربيين من بضع عشرات الالوف من المسلمين الموظفين او حاملي الشهادات الرسمية والأوسمة ، ولا يسمح للنساء بالاقتراع . والهيأة الثانية تضم جماهير الناخبين المسلمين ؛ والهيأة الاولى ، تمثل عملياً ، المليون أوروبياً الذين هم من أصل اوروبي والهياة الثانية تمثل الملايين الثمانية من المسلمين . بيد أن الجمعية الجزائرية تتضمن العدد

(١) يساوي كل منها الجمهورية اللبنانية في المساحة .

نفسه من النواب لكل من الهيأتين : ستون نائباً . وثمة ما هو أفضل ايضاً : فالمجالس العامةوالمجالس البلدية تتضمن ثلاثة أخماس الأعضاء المنتخبين من الهيأة الاولى (الأوروبيين) وخمسين فقط من الأعضاء من الهيأة الثانية .

هذا هو الوضع الذي يتناسب تماماً مع التصريحات الرسمية الجميلة عن « المساواة في الحقوق بين جميع المواطنين في الجزائر » .

وبالاضافة الى ذلك، فكلما صدر قانون فرنسي من شأنه الاضرار بالاستعمار ، يصدر قرار بأن هذا القانون لاينطبق على الجزائر . وهذا ما حدث مثلا ، في خصوص قانون الأنتخابات وفقاً للنظام النسبي ، في المجالس البلدية للمدن التي يبلغ عددسكان كل منها اكثر من ٩٠٠٠٠ نسمة . ولم يجر تطبيق هذا القانون في الجزائر،وذلك لأن من شأنه ان يضمن انتخاب الأكثريات التقدمية ، والمناهضة للاستعمار ، في غالبية المدن ، حتى مع وجود قاعدة الثلاثة اخماس والخمسين .

واخيراً ، اعتبرت الادارة الإستعمارية في الجزائر ان جميع هذه التدابير غير كافية أيضاً ، ولذلك فقد اصبحت هذه الإدارة أستاذة خبيرة في فن تزوير النتائج الإنتخابية : مثال ذلك انه في كثيرمن الحالات،نرى أن الأشخاص الوحيدين الذين يسمح لهم بالدخول الى المكاتب المسماة مكاتب الإقتراع هم القضاة ، ورجال الشرطة . والنتيجة : أنه في السابع من شهر تشرين الثاني الماضي «حصل» المرشح الرسمي للادارة الاستعمارية الفرنسية في الانتخابات الفرعية في بيرربالو، على ١٦٢٠٦ أصوات من

أصل ١٦٢١٦ صوتاً « نزلت» في الصناديق ، على حين ان بضع مئات فقط من الناخبين قد اشتركوا في الانتخابات .

هذا هو الوجه الوجه الحقيقي « للمقاطعات الفرنسية الثلاث » في الجزائر .

إن حركة القمع والارهاب تصيب ، كما قلنا ، اولئك الذين لايرضون بمثل هذه المهازل : المناضلين في الحركة الوطنية الجزائرية .

ومن نيسان ١٩٤٨ إلى كانون الأول ١٩٥٢ ، أصدرت المحاكم الإستعمارية الأحكام التالية : ٩٤٥ عاماً من السجن ، ٢٠ مليوناً من الفرنكات غرامات نقدية ، و٥٧٠ سنة من النفي ، و ١٢١٠ سنوات حرمان من الحقوق المدنية .

وفي الفترة التالية ، حلت السلطات « حركة النضال في سبيل انتصار الحريات الديموقراطية » ولوحق الكثيرون من المناضلين الشيوعيين ؛ لقد حكم على الرفيق « العربي أبو هالي » ، أمين الحزب والشيوعي الجزائري ، بالسجن ثلاث سنوات ، وبغرامة قدرها ٥٠٠,٠٠٠ فرنك ، وحرمانه من الحقوق المدنية مدة عشرين عاماً ، وذلك لأنه طالب بحق جميع الجزائريين في إدارة شؤون بلادهم ديموقراطياً ، ومطالبة كهذه تسميها السلطات الإستعمارية « خرقاً لسلامة البلاد » أو « مساً لأمن الدولة الخارجي » !...

فاذا لم يكن هذا كافياً ، فتك المستعمرون ، وأصدروا الأحكام بالجملة ، ونكلوا ، واضطهدوا ، وعذبوا ، وفقاً لصيغة المسؤولية الجماعية : وهذا ما جرى في ايار ١٩٤٥ ، في القسطنطينية حيث سقط أكثر من ٤٠,٠٠٠ قتيلاً من الجزائريين ، وهذا ما يجري اليوم في جميع أرجاء الجزائر .

الامة الجزائرية الناشئـــة

●

لقد درسنا الوجوه الرئيسية للجزائر ، بوصفها بلداً مستعمراً.
والجزائر تعرض علينا خاصة أخرى، تمنحها أصالة لا يمكن إنكارها : إنها أمة في طور التكون [1]

---

(١) إن لهذا البحث جانبه الموضوعي الايجابي ، وهو ، من هذه الناحية ، مساهمة تقدمية في حركة تحرر الشعب الجزائري؛ ولكننا نعتقد بأن المؤلف اتجه اتجاهاً وحيد الجانب ، بعدم طرحه قضية قومية الجزائر على صعيدها الصحيح ، وهو مفهوم الأمة العربية ، المتجهة اتجاهاً حازماً أكيداً ، وإن كان متفاوت السرعة ، نحو الوحدة العضوية العميقة الشاملة « وذلك بالارتكاز على عناصر « وحدة اللغة ، والارض ، والتكوين النفسي الذي يعبر عن ذاته في وحدة الثقافة . » وبالارتكاز على النضال الذي يخوضه اليوم مختلف أجزاء الأمة العربية للتحرر من سيطرة الاستعمار الاقتصادية والسياسية والثقافية ، الذي كان يحول ، حتى اليوم ، دون نشوء الوحدة الأقتصادية بين تلك الأجزاء ؛ إن جميع أجزاء الوطن العربي، بنضالها الباسل العنيد ضد الاستعمار وإحباطها مشروعاته الحربية العدوانية الاستعمارية ،وأحلافه، وتحررها منه بصورة نهائية ، واستعادة ثرواتها الطبيعية ، وتحرير أسواقها الداخلية ، وعلاقاتها الاقتصادية الخارجية ، سوف تحقق وحدتها القومية التامة الشاملة . (في هذا الموضوع المهم ثمة مكتبة عربية كاملة مؤلفة من مئات الكتب التي تعبر عن النزوع العميق الذي تحس به الجماهير العربية نحو الوحدة الكاملة ، ومن أهمها أبحاث الاستاذ خالد بكداش في هـذا الموضوع ، وخصوصاً خطـابه في المجلس النيـابي السوري بعنوان : « العرب يريدون ممارسة سيادتهم القومية . ») (المعرب)

لقد عبر عن هذا المفهوم لأول مرة موريس توريز في ١١ شباط ١٩٣٩ ، أثناء مهرجان أقيم في الجزائر .

وقبل هذا التاريخ بعدة أسابيع ، أي في ٢١ كانون الثاني ١٩٣٩ ، ذكر موريس توريز ، أمام المؤتمر الوطني للحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان منعقداً في جينيفيلية ، كيف تكونت الأمة الفرنسية ، عبر العصور ، من عشرين عرقاً انصهرت في هذه البوتقة الشاسعة الفائرة التي كانتها بلادنا وما تزال ... ولقد اكد الأمين العام للحزب

« ان الامة الفرنسية قد تكونت نهائياً على أطلال الاقطاعية والحكم الملكي المطلق ... وكانت هذه نهاية عملية تطور طويل مؤلم ، من المعارك التاريخية التي خاضهـــا الشعب تحت قيادة البورجوازية ضد أوضاع النظام القديم ، ورجاله . »

وبعد أن ذكرّ موريس توريز بشروط تكون الأمة الفرنسية ، عرف ، في شباط ١٩٣٩ ، الأمة الجزائرية الآخذة في التكون فقال :

« نحن الشيوعيين ، لا نقر بوجود العروق العنصريـة ، نحن لا نريد ان نعترف بغير بالشعوب . . . فأين يكون ، في بلادنا ، « العرق المختار » ، الذي يستطيع أن يطمح الى السيطرة بمفرده ، العرق الذي يستطيع ان يقول : هذه الارض كانت أرض أسلافي وأجدادي وحدهم ، وعليها ان تكون أرضي أنا وحدي ؟ ... أليس ثمة بينكم هنا ، الأبناء المتحدرون من تلك العشائر النوميدية القديمة ، التي كانت قد بلغت ، في تلك الأيام ،

مرتبة معينة من التمدن ، حتى انها استطاعت أن تجعـــل من من أراضيها أهراء لروما القديمة . أليس بينكم أحفاد اولئك البربر الذين اعطوا الكنيسة الكاثوليكية القديس اغسطين ، مطران هيبونة ، كما أعطوا في الوقت نفسه الخارجي دونات ؛ اليس بينكم الآن احفاد اولئك القرطجانيين ، والرومان ، وجميع اولئك الذين اسهموا ، طوال قرون وقرون ، في ازدهار حضارة ما تزال نشهد لها حتى اليوم آثاراً كثيرة ... وكذلك فبينكم الآن ابناء اولئك العرب ، الذين جاؤوا إلى هذه البلاد وراء رايــــة النبي ، وكذلك ابناء الاتراك الذين اعتنقوا الاسلام ، والذين ظهروا بعدئذ بمثابة فاتحين جدد . ان جميع هؤلاء انصهروا على ارضكم الجزائرية ، وانضم اليهم اليونان ، والمـــالطيين ، والاسبان والطليـــان ، والفرنسيون ...

« ان ثمة امة جزائرية آخذة في التكون ، هي ايضاً ، في انصهار اجناس مختلفه [1] » .

وهذا التعريف يشكل إسهاماً حاسماً من الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي في قضية تحرر الشعب الجزائري .

والواقع أننا وجدنا أن القضية الجزائرية ، في هذا التعريف ، توضع على القاعدة الصحيحة الوجيدة ، وهي قاعدة النظريـــة الماركسية اللينينية في الأمة . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت الطبقة

---

(١) موريس توريز – ابن الشعب ص ١٥٣ – ١٥٤ طبعة عام ١٩٥٤ .

العاملة الجزائرية ، والشعب الجزائري ، يعتملون، في نضالهم الوطني ، على مرتكز نظري راسخ ، وطيد ، ضد النظريات الإستعمارية التي تنفي كل إمكان لوجود أمة جزائرية ، وكذلك ضد المفاهيم القومية ، — التي قضى عليها ستالين منذ اكثر من أربعين عاماً — هذه المفاهيم التي تذهب إلى أن العرق أو الدين هما العنصران الحاسمان اللذان يكونان الأمة .

إن بعض القوميين يزعمون ، استناداً إلى عناصر كهذه ، أن الأمة الجزائرية كانت موجودة عام ١٨٣٠ ، منذ بداية غزو الجيوش الفرنسية للجزائر . فما حظ هذا التأكيد من الصحة ؟

لقد وضع ستالين للأمة التعريف التالي :

« الامة هي جماعة انسانية ثابتة ، تكونت تاريخياً ، ونشأت علي اساس وحدة اللغة ، والارض ، والحياة الاقتصادية والتكوين النفسي الذي يعبر عن ذاته في وحدة الثقافه... وفقدان عنصر واحد من هذه العناصر يكفي لكي تكف الامة عن ان تكون أمة » [1] .

فكيف كان الوضع في الجزائر عام ١٨٣٠ ؟

لقد كان السكان الجزائريون ، المنقسمون إلى قبائل ، يعيشون من الزراعة وتربية المواشي . وكانت المبادلات تجري ، من ناحية رئيسية ، على الأسواق الريفية والإقليمية . ولم تكن توجد ثمة علاقات اقتصادية وبشرية حقيقية بين مختلف أجزاء البلاد . لقد

---

(١) ستالين – الماركسية والمسألة الوطنية – المؤلفات – المجلد الثاني – ص ٢٦١ .

كانت اللغة ، وأسلوب المعيشة ، والتقاليد تختلف باختلاف الجماعة العنصرية أو الأقليم .

وكانت الإدارة الحكومية في ذلك العهد تطابق هذه الحالة من حالات تطور القوى المنتجة .

ويومئذ كانت افريقيا الشمالية الوسطى خاضعة منذ ثلاثة قرون لسيطرة الأتراك . ولقد قسم هؤلاء الجزائر ، تمشياً مع حاجاتهم الحكومية ، إلى أربع مقاطعات : مقاطعة الجزائر . وهي موضوعة مباشرة تحت سلطة الداي ، ومقاطعات قسطنطينة وميدية ووهران ، الموضوعة تحت سيطرة البايات ، وهم أقيال تابعون لداي الجزائر .

لقد كان ثمة دولة جزائرية قائمة ، من هذه الوجهة ، وهي أن سلطة الداي الإسمية كانت تمتد إلى جميع أنحاء البلاد ، وأنه كان يمارس علاقات تجارية ودبلوماسية مع عدد معين من الدول الكبرى ومن بينها فرنسا . ولكننا نستطيع القول بان العلاقات الجزائرية كانت قائمة في ذلك العهد بين سكان مختلف المقاطعات . ومن جهة أخرى ، فقد كان ثمة قبائل كثيرة لا تخضع للسلطة المركزية أو لسلطة البايات إلا بروابط ضئيلة : وكانت هذه على وجه التخصيص ، هي حالة المنطقة القبيلية ، وقبائل الجنوب الرحالة ، وعدة جماعات رحالة ، أو دينية ، التي كانت تقريباً مستقلة في الواقع .

وهكذا يتضح بأن الجزائر كانت عام ١٨٣٠ بعيدة عن أن تملك صفة الأمة .

وبعدذلك، فان واقع كون النظام الاستعماري يخلق العراقيل والعقبات في وجه نمو الصناعة والمواصلات، لا يمكن إلا ان يؤخر تكون الامة.

ومن ناحية أُخرى فقد بذل المستعمرون اقصى جهودهم لتحطيم كل ما من شأنه ان يخدم كرابطة بين الجزائريين: وقد حاولوا، بوجه خاص، ان يخنقوا اللغة العربية بجميع الوسائل، كما رأينا. ولقد حاولوا باستمرار ايجاد الشقاق والانقسام بين مختلف عناصر السكان الاصليين. فان كانوا قد اخفقوا في محاولاتهم لشق العرب والبربر، فقد نجحوا في بعض مناورات إيجاد الشقاق. فهم، مثلاً، قدمنحوا اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية، مع نفس الحقوق التي يتمتع بها المواطنون الفرنسيون، على حين بقي الجزائريون المسلمون، لا يتمتعون بأي حق سياسي:

ولقدكان هذا هو هدف قانون كريميو الصادر في ٢٤ تشرين الاول ١٨٧٠. والى هذه الغاية نفسها تهدف ايضاً جميع تدابير التمييز العنصري، التي هي خاصة من خصائص النظام الاستعماري وإدارته

ولكن لا الاستيطان الأوروبي، ولا الإستعمار، استطاعا أن يحولا، سواء في الجزائر، أم في سواها من البلدان، دون نمو التناقضات التي تنتج عنها نتائج ذات طابع وطني.

لقد كانت مقاومة الغزو الفرنسي أول عنصر حاسم من عناصر الوعي الوطني الجزائري، والنضال الذي خاضه الأمير عبدالقادر

خلال أربعة عشر عاماً ، ضد الجيوش الفرنسية ، جامعاً تحت سلطته ، قبيلة فقبيلة ، بلاداً شاسعة الأطراف ، على أساس المصلحة المشتركة ، هذا النضال يشكل ، ولا شك ، عاملا مهماً جداً في حركة الوعي هذه . وهذا ما حدث ايضاً ، وإن كان على مستوى ادنى ، في جميع الإنتفاضات التي برزت في حركة المقاومة الجزائرية المسلحة بعد استسلام الأمير عبد القادر : وهذا ما حدث بوجه خاص في الإنتفاضة التي أدت إلى تجمع أكثر من ٢٠٠٠٠٠ رجل تحت قيادة المقراني .

ومن جهة أخرى فقد سهل النظام الإستعماري ، أو فرض المبادلات التجارية اوتمركز السكان بصورة مهمة إلى أقصى حد وهذا مما ساعد — على رغم الإستعمار طبعاً — على تفجير الروابط التي كانت قائمة في إطار القبيلة ، أو الإقليم ، أو الطائفة السلالية ، ووسع مشاغل ملايين الناس ونظرتهم حتى أصبحت على النطاق الجزائري العام. وكذلك أسهمت في هذه في النتائج ، بوجه خاص ، استخدام وسائل النقل الحديثة ، واضطرار جماهير غفيرة من السكان إلى هجر قراها ، وتبديل منطقة سكنها ، بل اضطرار كثير من الجزائريين إلى النزوح عن البلاد ، لكسب معيشتهم ومعيشة عائلاتهم التي تبقى في الريف .

وإلى هذه الأسباب يضاف ، طبعاً ، السبب المتضمن النقيضة الثالثة من المتناقضات الرأسمالية في عهد الإستعمار ، كما شرحها ستالين في كتابه « قضايا اللينينية » حيث قال :

« الاستعمار هو اوقح استثمار ممكن ، وافظع اضطهـــاد ،

واكثره خلواً من الانسانيـة ، استثار واضطهاد مئات الملايين من سكان المستعمرات الشاسعة ، والبلاد التابعة . نهب الارباح الخارقة : هذه هي غاية هذا الاستثار وذلك الاضطهاد. ولكن الاستعمار ، باستثار هذه البلاد ، يكون مرغماً على ان يشيد فيها السكك الحديدية ، والمعامـل والمصانع ، ومراكز الصناعات ، والتجارة . وتكون النتائج المحتومة لهذه السياسة ظهور طبقة من العمال الكادحين (البروليتاريين) ، ونشوء مثقفين من اهل البلاد الاصليين ، ويقظة الضمير الوطني [1] »

إن فكرة ستالين هذه تنطبق تمام الإنطباق على الجزائر .

وثمة عنصران مهمان آخران أسهما في تكوين الحركة الوطنية الجزائرية .

العنصر الأول : باديء بدء ، هو ثورة اوكتوبر الإشتراكية التي قال عنها ستالين إنها دشنت عهداً جديداً ، هو عهد الثورات في البلدان المستعمرة المضطهدة في العالم ، متحالفة مع البروليتاريا وتحت قيادتها .»

ومما له دلالته كون الأحزاب الوطنية والحركات الوطنية — بما فيها الأحزاب والحركات القومية — في الجزائر وتونس ومراكش قد نشأت في الأعوام التي تلت عام ١٩٢٠ .

والعنصر الثاني ، إنما هو نتيجة لنزوح عشرات الألوف بل مئات الالوف من الشغيلة الجزائريين الى فرنسا . فهؤلاء الشغيلة ، باحتكاكهم

---

(١) ستالين — أسس اللينينية ، المنشورات الإجتماعية ١٩٥١ ص ٦ .

بالطبقة العاملة، وبالحركة النقابية وبالحزب الشيوعي الفرنسي ، قد أفادوا من التجربة وطرائق التنظيم العمالية والثورية : ففي فرنسا ولدت ، وسط هؤلاء الشغيلة المهاجرين ، بعض أهم الحركات الوطنية الجزائرية ؛

بهذا يفسر الإفلاس التام للسياسة التي سماها المستعمرون الفرنسيون سياسة « الإهتضام » والتي قرر انتهاجها ابتداء من عام ١٨٦٥ المشترعون الفرنسيون، والتي أفضت الى النتيجة التالية : منذ عام ١٨٦٥ حتى عام ١٩٣٤ تجنس أقل من ٢٥٠٠٠ مسلم جزائري بالجنسية الفرنسية ، وهذا يؤلف المعدل المضحك وهو ٣٦ شخصاً في العام ! ...

وهذه الارادة الاجماعية الشاملة للجماهير العربية والبربرية بأن تبقى جزائرية هي اول وجه حاسم من وجوه تكون الامة الجزائرية .

والوجه الثاني هو الطابع الخاص للسكان الذين هم من اصل أوروبي ، الذين تدفقوا على الجزائر منذ عام ١٨٣٠ ، والذين تسهم أكثريتهم الساحقة ، هي ايضاً ، في هذا التكون القومي .

طابع السكان الذين هم
من أصل أوروبي

●

ان غرابةطابع هوءلاءالسكان لا يمكن انكارها. فهم يتضمنون عدداً كبيراً نسبياً من أحفاد الإسبانيين والإيطاليين الخ .. الذين جاؤوا الى الجزائر بداعي الهجرة الإقتصادية اوالسياسية ،واغلبهم قد اعتبر فرنساً ، بفضل قانون منح الجنسية الفرنسية لجميع الأبناء الذين لا يطالبون بالحصول على جنسية آبائهم في السنة التالية لسنة بلوغهم سن الرشد . ولقد أفسح ذلك لأحد المؤرخين ان يقول عنهم ، بحق : انهم يجهلون فرنسا جهلا تاماً تقريباً ؛ وهم لايعتبرون انفسهم اسبانيين ولاإيطاليين ولافرنسيين . بل جزائريين . »

اما السكانالذين هم منأصل فرنسي، وعددهم يفوق عدد سواهم من المهاجرين بنسبة كبيرة جداً ، فهم يتألفون خصوصاً من ذرية اولئك الذين كان يسميهم الجنرال جيرار « فائض سكاننا » ، وهذا الفائض «كان يتضمن بوجه خاص ،عشرات الألوف من الرجال الذين كانوا في فرنسا « غير مرغوبفيهم »

في فرنسا فيرسلون الى الجزائر بعد حوادث حزيران ١٨٤٨ ، وكذلك الألوف من أهالي الألزاس واللورين الذين رفضوا ان يصبحوا بروسيين فأرسلتهم الحكومة الفرنسية الى الجزائر عام ١٨٧١ . إن اغلبية هؤلاء الرجال والنساء يعتبرون الجزائر — وهي البلاد التي ولدوا فيها ، وفيها يعملون، ولهم فيها عائلاتهم ومصالحهم — بوصفها وطناً لهم . ان نمط معيشتهم ، وطريقة نظرهم الى كثير من القضايا يختلفان عن نمط معيشة الفرنسيين ، ونظرتهم . وأكثر اولئك رجعية يسمون انفسهم «فرنسيي الجزائر» معارضة لاسم «فرنسيي فرنسا» وهذه ظاهرة عامة تقريباً ، يعرفها جميع اولئك الذين اتيح لهم الإقامة في الجزائر . إذن فلا يمكن ان يعتبر السكان الذين هم من اصل أوروبي ويقيمون في الجزائر ، بوصفهم اقلية قومية فرنسية : بل هم يشكلون جماعة من الناس تندمج شيئاً فشيئاً في مجتمع جديد ، في الأمة الجزائرية الآخذة في التكون .

وثمة ظرف ذو طابع اجتماعي، يسهل ، من جهة اخرى ، هذا الإندماج. وذلك خلافاً لما تؤكده الأوساط الإستعمارية والصحافة المأجورة ، وما يؤكده من جهة أخرى ، بعض القوميين الجزائريين، عن نية طيبة، من ان «فرنسيي الجزائر» بعيدون عن ان يكونوا كتلة متجانسة تدعم السادة المستعمرين .

ومما لاشك فيه ان هؤلاء بذلوا اقصى جهودهم لكي يوجدوا في حدود الإمكان ، كتلة كهذه . فقد منحوا الموظفين تعويضاً «استعمارياً» قدره ٣٣ بالمائة . وقد فعلوا كل شيء لكي يؤلف

الشغيلة ذوو الأصل الأوربي فئة إرستقراطية بالنسبة الى جماهير الشغيلة المسلمين ، المحصورين في مهام التنفيذ. ومع ذلك، فان ثمة باستثناء موظفي الإدارة والمراقبة الخ والموظفين عامة ،اكثر من ٢٠٠ ٠٠٠ عامل اوروبي بالأجرة ، يضافون الى الـ ٣٥٠ ٠٠٠ عامل بالأجرة، من العرب والبربر ، ويتضمنون ،تبعاً لإحصائيات الحكومة العامة ، ٣٥٠٠٠٠ عاملا يدوياً ، و ٩٥٠٠٠ عاملا ومستخدماً اختصاصياً و ٦٠٠٠٠ عاملا او مستخدماً كفوءاً .

ومن جهة أخرى ، فان عدد الملاكين العقاريين هو : ٢١ ٠٠٠ . ومن المناسب الإشارة ايضاً إلى أن تمركز الأراضي المستعمرة يستمر بوتيرة سريعة جداً ، سواء عن طريق امتصاص الملكية الاوروبية الصغيرة أم عن طريق امتصاص الأراضي التي يملكها المسلمون . وهكذا تدنى عدد الملاكين الاوروبيين من ٢٥ ٠٠٠ عام ١٩٤٠ إلى ٢١ ٠٠٠ عام ١٩٥٢ . فثمة — اذن — في هذه الأيام ، عدد من الأجراء من أصل اوروبي يبلغ عشرة أضعاف عدد المستعمرين ، وهذه النسبة تمضي متزايدة .

وفي أمكنة العمل ، في المصنع ، والمعمل ، والمكتب ، يأخذ المسلمون والاوروبيون في التعارف والتفاهم . وهم يدركون، أكثر فأكثر أنهم مستثمرون جميعاً، حتى ولو كانوا يُستثمرون هكذا ، في اغلب الأحيان ، بدرجات متفاوتة . وهذا يحملهم على ادرك أضرار العنصرية ، التي يستخدمها المستعمرون تطبيقاً للصيغة القديمة « فرق تسد » . وهم يدركون بتجاربهم الخاصة ،

كل ما يؤدي الى توحيدهم ضد اعدائهم المشتركين .

ان الحركة النقابية هي مدرسة رائعة يصاغ فيها وعي الجزائر. والشغيلة من جميع الأجناس – العرب والبربر والأوروبيون . – تجمع بينهم الروابط الأخوية ، يناضلون دفاعاً عن مطالبهم المادية وهو نضال مرتبط ارتباطاً مباشراً مع نضالهم ضد الإستعمار . وكثيرا ما نرى عمال السكة الحديدية ومستخدمي البريد ،واغلبهم من اصل فرنسي ، يدعمون المعارك الباسلة التي يخوضها عمال المناجم وأغلبيتهم من المسلمين .

ومجموع الحركة النقابية الجزائرية قد دعم بصورة ملموسة ، النضال الرائع الذي قام به عمال أحواض السفن ، وذلك بأن أضرب العمال ابتداء من حزيران ١٩٤٩ الى تموز ١٩٥٤ ، وامتنعوا عن أن يشحنوا سفينة واحدة الى الهند الصينية . ان « الاتحاد العام للنقابات الحرة » يتالف مكتبه من ١٤ مناضلا مسلماً و٨ مناضلين من اصل اوروبي .

ميزة الحزب الشيوعي الجزائري

•

واخيراً ، فان الحزب الشيوعي الجزائري ، وهو الحزب « الوحيد الذي يجمع ، بلا تمييز ، رجالا ونساء من جميع الأجناس » هو حقاً حزب الأمة الجزائرية الناشئة . ولقد اعلن بيانه الصادر في تموز ١٩٤٦ :

« ان بلادنا تتخذ مكانها في التطور العام نحو الحرية والتقدم ذلك التطور الذي يحرك شعور العالم بأسره . ونحن نريد ان تعيش بلادنا حياتها الوطنية الخاصة بها ، المشيدة على استخدام ثرواتها في مصلحة شعبها وحده . »

« ونحن ، الجزائريين من جميع الاجناس ، نكون بالفعل ، على ارضنا المشتركة ، جماعة ثابتة . ونحن مرتبطون بمصالح عامة مشتركة وبالنضال ضد الاعداء انفسهم . »

« وهذه الوحدة تؤلف اساس الامة الجزائرية الناشئة ، الغنية بجهود جميع ابنائها ، على اختلاف اصولهم واجناسهم ، والمزيج الموفق للحضارتين الشرقية والغربية »

لقد كان الحزب الشيوعي الجزائري ينادي منذ ١٩٤٦ ،

بانتخاب جمعية تأسيسية جزائرية ، وحكومة تدير جميع الشؤون الجزائرية وتمهد الطريق امام جمهورية ديمقراطية جزائرية ،لها دستورها ومجلسها النيابي ، وحكومتها، وترتبط بالجمهورية الفرنسية براوبط تقررها الجزائر بحرية تامة .

ولقد ايد الحزب تأييداً حازماً مطالب الطبقة العاملة الجزائرية؛ ومن جهة اخرى،طالب باصلاح زراعي يوزع على العمال الزراعيين، والخماسين ، والفلاحين المسلمين وصغار الملاكين، الاراضي الشاسعة التي استولى عليها المستعمرون . وهذا المنهاج هو منهاج الحزب الشيوعي الجزائري .

ان الدعاية الجريئة والنضال الباسل المستمر لهذا الحزب ، من حيث مفهومه للأمة الجزائرية الآخذة في التكون اتاحا له الحصول على نتائج مهمة جداً .

ومما له دلالة ان اكثر من ٢٠ بالمئة من الناخبين الذين هم من أصل اوربي قد صوتوا ، في انتخابات نيسان ١٩٥١ ، تأييداً للسياسة الوطنية التي يتبناها الحزب الشيوعي الجزائري .

ومن جهة اخرى ، فلقد حدثت تغيرات مهمة في اوساط الجماهير الإسلامية ، جرى التعبير عنها حتى في مواقف مختلف الأحزاب القومية . وهكذا ففي المؤتمر الثاني « لحركة النضال في سبيل انتصار الحريات الديمقراطية» الذي انعقد في نيسان ١٩٥٣ اتخذ المؤتمرون الموقف التالي :

« انه في الجزائر المستقلة :

اولا — يكون من حق الاقلية الفرنسية ان تبقى في الجزائر

ثانياً–سوف يعتبر فرنسيو الجزائر جزائريين ويستطيعون بالتالي ، بوصفهم كذلك ، الافادة من جميع الحقوق على قدم المساواة مع الجزائريين الذين هم من أصل اسلامي، كما ان عليهم النهوض بجميع الواجبات . »

وبعد انقسام « هذه الحركة » الذي حدث في تموز ١٩٥٤ ، تراجع بعض القوميين عن هذا الموقف وعادوا الى شعار « الجزائر المسلمة » ولكن مما رلا يب فيه ان مفهوم الأمة الجزائرية الآخذة في التكون سوف يظهر اكثر فاكثر بوصفه المفهوم الوحيد الصحيح ، ذلك لأنه وحده الذي يتفق مع الواقع الجزائري؛ وبوصفه ذاك ، فهو المفهوم الوحيد القادر على تحريك جماهير الجزائريين من جميع الأجناس في النضال لتحرير البلاد : ولقد جاءت الحوادث الحالية مصداقاً لهذا الواقع :

ان المستعمرين والصحافة المأجورة التي تخدمهم تنتهز هذه الحوادث لمحاولة تأليب السكان الذين هم اصل أوروبي على الجماهير الإسلامية، ولكنهم بعيدون عن النجاح في هذه المؤامرة .

وعلى تيار الحقد الإستعماري الجامح ، ترد وقائع تبين نمو النضج السياسي ، في اتجاه شعور وطني عام ، عند الجزائريين من جميع الأجناس . وهكذا مثلا فكثير من عمال السكك الحديدية الأوروبيين عارضوا في انشاء حرس مدني مسلح ، على حين ان منظمات كهذه التي يقودها كبار المستعمرين قد امكن إنشاؤها اثناء حوادث ستيف وغلما عام ١٩٤٥ . وثمة مثال آخر فان ستين مدرساً من وهران ، من بينهم ٥٤ أستاذاً من أصل

أوروبي، قد وقعوا منذمدة وجيزة نداءمدوياً ، يقترحون فيه، بعد استنكارهم الشديد لأعمال القمع والأرهاب التي يقوم بها المستعمرون الفرنسيون باسمالسفسطة القائلة: «الجزائرهيفرنسا» يقترحون فيه عدداً معيناً من التدابير الهادفة الى خلق جو يفسح المجال «لأخوة الجزائريين، اليوم وفي المستقبل، الجزائريين من جميع الأجناس، اولئك الذين يعيشون في هذه البلاد».

وبامكاننا مضاعفة هذه الامثال.

وهكذا تنموا شروط الأمة الجزائرية.

إن الجزائر هي اليوم جماعة يمكن اعتبارها ثابتة، تتكون تاريخياً على اساس ارض مشتركة، وحياة اقتصادية مشتركة، على رغم ان النظام الاستعماري يفسدها. وفي الحياة، وفي النضال ضد هذا النظـــام الاستعماري وفي سبيل جزائر متحررة من قيودها، تتوطد الروابط القائمة بين مختلف عناصرها السلالية.

وفي الوقت نفسه ينمو طابع جزائري وطني، معبراً عن ذاته فعلا منذ سنوات عديدة — على الصعيد الثقافي — بتفتح فنون جزائرية من موسيقى وتصوير وأدب.

ومما لاريب فيه ان تطور الأمة الجزائرية سوف يتقدم بصورة أسرع كثيراً ابتداءاً من اللحظة التي تتحرر فيها الجزائر من النير الإستعماري، وخصوصاً بمقدار ما سوف تتمتع به من نظـام حكم ديموقراطي حقاً.

وعندئذ، وخصوصاً بفضل تصنيع البلاد، واقامة علاقات تجارية حرة، فان الجزائر سوف تتمتع بحياة اقتصادية خاصة بها

أما مشكلة اللغة فيمكن ان تحل . ولسوف يسهل زوال التفاوت الإجتماعي والتمييزات العنصرية الخاصة بالنظام الإستعماري ، تسهيلا كبيراً، تقارب مختلف عناصر الأمة الجزائرية ثم انصهارها.

هذا هو المشروع العظيم ، المؤسس على شروط واقعية ، الذي يجد الجزائريون أنفسهم مقبلين عليه . اما اولئك الذين يرون بأن هذا الأمل هو بعيد جداً ، فيكفي ان نذكرهم بما آلت اليه ، في مدة ربع قرن، بفضل النظام الإشتراكي ، المستعمرات القيصرية القديمة ، وكيف تتحول تحت اعيننا ، مختلف القوميات التي تؤلف الصين الجديدة ، تلك التي كانت قوميات خاضعة للأجنبي منذ عهد قريب .

ولقد لفت موريس توريز الأنظار في الخطاب الذي ألقاه في شباط ١٩٣٩ في الجزائر

الى « **ان جهود الجمهورية الفرنسية يمكن ان تسهل ، وتساعد على تطور الامة الجزائرية .** »

ولقد ظهرت مثل هذه المعونة بالفعل في كل مرة كانت تتمكن فيها القوى الشعبية والدمقراطية من فرض اتجاه تقدمي على السياسة الفرنسية

أما اليوم فان السياسة المشؤومة للحكومة الفرنسية ، التي تتميز بأرادة انهاض الروح العسكرية الألمانية ، تعبر عن ذاتها في افريقيا الشمالية بالمبالغة في تدابير العنف والإرهاب والطغيان ، ورفض الإصغاء الى المطالب المشروعة : مطالب الحرية والإستقلال لشعب الجزائر الباسل . ان التدابير المتخذة ، تلك التي تمليها ولاشك ، الرغبة في إرضاء رجال التروستات والاحتكارات الفرنسية ابتغاء

لأقصى الأرباح ، إنما تهدف ايضاً الى خلق الشروط لنقل، الصناعات الفرنسية الألمانية الى الجزائر والى الصحراء ، وهي الخطوة الاولى نحو تحقيق الفكرة الهتلرية القديمة ، فكرة «الأورا افريقيا » . ومن جهة اخرى ، فقد بحث ماندس فرانس ، خلال رحلته الأخيرة الى ايطاليا ، فكرة ارسال يد عاملة ايطالية الى الجزائر ، في حين ان مئات الألوف من الجزائريين عاطلون عن العمل. ان جميع الأحزاب الوطنية، وجميع المنظمات الديموقراطية في الجزائر تناهض هذه المشاريع ، التي يجري تخطيطها في إطار اتفاقيات لندن وباريس ، كما انها تناهض ضم الجزائر الى حلف الأطلسي ، وتناهض السيطرة الإقتصادية الأميركية ، وتقاوم انشاء قواعد عسكرية وبحرية توضع تحت تصرف مثيري الحروب ودعاتها. وهذا سبب جديد من أسباب نضال الشعب الجزائري، كما اشار الحزب الشيوعي الفرنسي في بيان أصدره في الثامن من تشرين الثاني الماضي .

« تأييدنا لنضال الشعب الجزائري »

●

إن بيان الحزب الشيوعي الفرنسي الصادر في ٨ تشرين الثاني ، بعد ان استنكر أعمال الحكومة الفرنسية المسؤولة عن أحداث الجزائر ، يبين الطريق الوحيد لوضع حد للحالة الحاضرة :

١ — ايقاف اعمال القمع والإرهاب الإستعمارية ، واعادة قوات الجيش وقوات البوليس الى فرنسا ، هذه القوات وتلك الجيوش التي أرسلت الى الجزائر منذ تموز ١٩٥٤ .

٢ — الإعتراف بحق الشعب الجزائري ، وبمطالبته بحريته .

٣ — بحث هذه المطالب مع الممثلين الشرعيين لمجموع الرأي العام العربي الجزائري : من ممثلي جميع أحزاب الحركة الوطنية والمهنية والدينية ، والشخصيات .

ومما لاشك فيه ان مثل هذه التدابير هي وحدها القادرة على إعادة الهدوء الى الجزائر ، وافساح مجال للتقدم نحو حل ديموقراطي للمشكلة الجزائرية . ويتضمن البيان فقرة من المفيد ولاشك تقديم بعض الإيضاحات حولها . وهذا نص الفقرة :

«ان الحزب الشيوعي الفرنسي ، الامين لتعليم لينين ، لا يستطيع له أن يوافق على اللجوء إلى اعمال فردية من شأنها خدمة اسوأ

غايات المستعمرين،هذا إذا لم يكونوا هم الذين يدبرونها. والحزب يؤكد للشعب الجزائري تضامن الطبقة العاملة الفرنسية معه في نضاله الجماهيري ضد عمليات القمع والارهاب ، ودفاعاً عن حقوقه . »

ان حزبنا ، بايضاحه الدقيق لهذا الموقف الأساسي ، قد خلق الشروط لتضامن وطيد بين الطبقة العاملة الفرنسية وحركة نضال الشعب الجزائري . وهو يسهل ، في الظروف الدقيقة الحالية ، التفاهم ، يعاني اتحاد مختلف عناصر الأمة الجزائرية الناشئة . وهو يقوم بواجبه إزاء الحركة الوطنية الجزائرية .

والواقع ان من واجب حزبنا إفادة حركات التحرر في البلاد المضطهدة من تجربته الخاصة ، نظراً لأن هذه التجربة هي تجربة الحركة العمالية الفرنسية ، وكذلك — والى حد معين — فهي نتيجة اختبارات الحركة العمالية الأممية. والمعروف ان هذه التجربة واضحة بصورة خاصة فيما يتعلق باشكال النضال .

لقد علمنا لينين « **ان الماركسية لا ترفض بصورة مطلقة اي شكل من اشكال النضال .** » وعلمنا ايضاً ان « **الماركسية تتعلم ، إذا صح التعبير ، في مدرسة الجماهيرية العملية . وهي ابعد من ان تزعم انها تعلم الجماهير دروساً بعرضها عليهم اشكال نضال اخترعها « صانعون للمذاهب » في غرف دراستهم . »** [1]

والشيء الجوهري، انما هو نضال الجماهير ، في الأشكال التي

---

(١) لينين : ماركس ، انجلس ، ماركسية ، ص ١٥٢ .

تعينها الجماهير ، اما دور الحزب الشيوعي فهو تنويرها وإيضاح الطريق امامها .

وبسبب من أنه ليس ثمة « نظام جاهز يصح في جميع الأحوال » فان الشيوعيين يلحون بضرورة استخدام اشكال النضال الملائمة لكل حالة معينة ، مع الأخذ بعين الإعتبار بأن حالة التطور والتنظيم لحركة الجماهير تتضمن في كثير من الأحيان اختلافات مهمة في المنطقة الواحدة ، وفي الجماعة الواحدة من السكان ، واحياناً في المشروع الواحد. والشيوعيون ينذرون الطبقة العاملة والجماهير بما يعرضها للإنحراف عن هدفها الأساسي اويضعفها في نضالها ، وخصوصاً بسقوطها في شرك العدو او بتسهيل عملياته بأية طريقة كان ذلك .

ولهذا السبب يشير بيان ٨ تشرين الثاني ، طبقاً لتعليم لينين ، ولتجربة الحزب الشيوعي الفرنسي ، إلى أننا لانؤيد اللجوء الى اعمال فردية من شأنها خدمة المستعمرين ، هذا إذا لم يكونوا هم الذين يدبرونها .

ومما لاشك فيه ان مثل هذا الموقف يتلاءم مع المصلحة الراهنة للحركة الوطنية الجزائرية ، كما يتلاءم مع مصلحتها في المستقبل . ان افضل تأييد ندعم به نضال الشعب الجزائري انما يقوم في إرغام الحكومة الفرنسية على انتهاج سياسة أخرى في الجزائر غير السياسة الاستعمارية الإرهابية التي تتمشى عليها في هذه الأيام . كما ان من واجب طبقتنا العاملة التعبير عن تضامنها الإيجابي الفعال ، مع مئات الألوف من شغيلة شمالي افريقيا ، واكثرهم

جزائريون ، هؤلاء الذين منعهم الاستعمار الفرنسي على النزوح عن بلادهم ، فجأؤوا الى فرنسا .

وعلينا ان ندعم المطالب المشروعة لهؤلاء الشغيلة : الأجور ، والتعويضات العائلية المساوية لتعويضات الشغيلة الفرنسيين وحقهم في المسكن . وعلينا ايضاً — في الدرجة الأولى — ان نفهم مطامحهم الوطنية، وان ندعمها .

وعلينا ان ندرس معهم ، في المصانع ، وفي القاعدة المحلية ، الأعمال المشتركة التي نستطيع القيام بها معاً ضد القمع الفظيع الرهيب الذي يجري اليوم في الجزائر ، وذلك الذي يصيبهم هنا في بلادنا ايضاً . ومن واجبنا ان نبين لهم ان كل عمل يقومون به منفردين ، بمعزل عن الطبقة العاملة الفرنسية ، لن يتعرض للاخفاق وحسب ، وانما من شأنه ان يعرضهم لحركة قمع متزايد فأفضل وسيلة لدعم نضال الشعب الجزائري في هذه الظروف ، إنما هي توطيد وحدة النضال بين الشغيلة الجزائريين والعمال الفرنسيين وسواهم من الديموقراطيين ، وكذلك بالنضال ، جنباً إلى جنب ، ضد القمع والإضطهاد وحروب الإفناء والمحق التي تصيب الوطنيين الجزائريين ، وفي سبيل العفو عن المحكومين ، والإستجابةللمطالب المشروعة في الحرية .

ولسوف نحصل على نتائج أهم إذا نجحنا في أن نستأصل من أذهان الشغيلة الفرنسيين الأفكار الإستعمارية المسبقة التي قدتكون ما تزال راسخة فيها . **وبمقدار ما نبين لهم ان الجزائر ليست فرنسا ، بل هي بلد مستعمر مضطهد من قبل استعماريينا**

الفرنسيين انفسهم، وان الجزائر هي، في الوقت نفسه، امة آخذة في التكون، باستطاعتنا المساعدة في تطورها. وذلك، في آن واحد، هو واجبنا بوصفنا أمميين، وواجبنا ومصلحتنا بوصفنا عمالاً كادحين ووصفنا فرنسيين نذهب وقوداً للحروب الاستعمارية في الجزائر على حين تتكدس الإرباح الهائلة الاسطورية في خزائن التروستات والشركات الاحتكارية واقطاعيي الارض. واجبنا بوصفنا عمالاً كادحين، نظراً لأن الشعب الجزائري، شأنه في ذلك شأن سائر شعوب ما وراء البحار، يناضل ضد أعدائنا الطبقيين أنفسهم. وبوصفنا فرنسيين، وذلك، وفقاً لبيان الثامن من تشرين الثاني ١٩٥٤، لأنه لا يمكن ضمان المصالح الفرنسية الحقيقية إلا إذا آلت العلاقات بين الشعبين الجزائري والفرنسي إلى جو من الصداقة والثقة المتبادلة.»

عبرة من الاحداث

●

لقد بينت حوادث الهند الصينية ، وتونس ، ومرا كش ، وما تزال تبين أن من المستحيل اليوم القضاء ، بالقوة ، على إرادة الشعوب التي ما تزال مُضطهدة، في ان تعيش حرة .

ومن جهة ثانية ، فقد أثبتت حوادث الهند الصينية أن من الممكن أن نقيم مع هذه الشعوب، منذ الإعتراف بحقها في الحرية، علاقات صداقة ، اقتصادية وسياسية، مؤسسة على الثقة والاحترام المتبادلين ، وضمانة حقوق فرنسا الجوهرية . وهذا هو معنى العروض التي تقدم بها ، في جنيف ، فام فان دونغ ، مندوب جمهورية الفيتنام الشعبية . ولقد أكدت شطراً من هذه العروض الاتفاقيات التي وقعت أخيراً في هانوي : وليس الذنب ذنب الحكومة الفيتنامية إذا ظلت هذه الإتفاقيات محدودة النطاق ، وإنما هو ذنب الحكومة الفرنسية وسادتها الأميركيين ، نظراً لأن الشغل الشاغل لهؤلاء هو نسف قرارات جنيف .

يجب ان تخدم تجربة الفيتينام لجميع الشعوب التي ما تزال تحت النير الإستعماري . وإزاء جميع هذه الشعوب ، ليس ثمة أي حل

ممكن سوى تلبية مطالبهم الوطنية ، مع الأخذ بعين الإعتبار ، الظروف الخاصة بكل شعب . ولهذه التجربة قيمة في الجزائر وكذلك في سواها من البلدان الخاضعة لنير الإستعمار .

فالقضية — اذن — تطرح بصورة واضحة تمام الوضوح. إن الحكام الفرنسيين ، ببذلهم الجهود لإبقاء نظام حكم ترفضه الأكثرية الساحقة من الجزائريين ، رفضاً باتاً ، يعلمون أنهم يمضون نحو أعمال عنف متزايدة تقود إلى وضعية بالغة الخطورة ، وتوسيع الهوة التي من مصلحة الإستعمار حفرها بين مختلف فئات السكان الجزائريين ، وزيادة الحقد على فرنسا .

وعلى كل حال فهذا كله سوف يكون خسارة بحتة ، حتى من ناحية الرأسماليين الفرنسيين ، بما ان النظام الرأسمالي محكوم عليه بالزوال ، على نحو لاعلاج له .

إن الشيوعيين بنضالهم ضد سياسة كهذه ، فانما يعملون لإعادة السلم إلى الجزائر . وهم يعملون في الوقت نفسه ، على أن يجعلوا من مجموع الجزائريين « اصدقاء ، وحلفاء لشعبنا » ، وفقاً لتعبير موريس توريز في شباط ١٩٥٤ . وهكذا يتسلمون في هذا الميدان ، شأنهم في جميع الميادين الأخرى ، أمر الدفاع عن المصلحة الوطنية ، التي خانتها البورجوازية .

« شهادة في الاستعمار »

●

« إن افريقيا الشمالية مهمة الى اقصى حدود الأهمية بالنسبة الى الغرب، بسبب يدها العاملة الرخيصة ، وموادها الخام الستراتيجية ، وقواعدها الجوية ، التي تستطيع الطائرات المنطلقة منها ان تصل بسهولة الى جميع مناطق اوروبا، وحقول باكو البترولية، في روسيا . »

— النيويورك هيرالد تريبيون —

— ٢٠ آذار ١٩٥٥ —

في مؤتمر « سان فرنسيسكو » ، عام ١٩٤٥ ، قيلت كلمة غريبة اثناء المناقشات وهي : « لقد مات الإستعمار ! »

ومنذ ذلك التاريخ ، مضت سنوات . ولنتصور ماذا سيحدث اليوم ، بعد مضي هذه السنوات ، لو انعقد في سان فرنسيسكو أو في مكان آخر مؤتمر مماثل . فليس ثمة من شك بأن أصواتاً زالت منها الأوهام سوف ترتفع هاتفة « الإستعمار لم يمت مطلقاً . . »

وإنها لحقيقة واقعية من حقائق ما بعد الحرب ، التي تسجل مرحلة من مراحل وعي الشعوب ونزع غشاوة الأوهام عن عيونها : إنه بقاء الإستعمار .

ففي الساعة الراهنة ، في أرجاء العالم ، ما يزال ملايين وملايين من الناس يعيشون حياة ضنك وبؤس ، ويموتون مسحوقين تحت ثقل الأنظمة التي حكم عليها التاريخ بالموت ، ومع ذلك فهي ما زالت ترفض ان تموت .

ما هو الإستعمار ، وكيف يمكن تعريفه ؟ او بتعبير أصح ، ولكي نجتنب تجريد التعريفات ، كيف نتبين الإستعمار ، وماهي خصائصه ؟

ان الفكرة الأولى التي يفرضها فحص الواقع هي هذه : إن الأستعمار هو نظام جامح لاستثمار جماهير واسعة من الناس ، نشأ في العنف ، ولا يثبت نفسه إلا بواسطة العنف .

إنني أعلم حق العلم ان ثمة مجادلات كثيرة قد جرت لطمس هذه الفكرة الأساسية ، وإفساد طبيعتها ، وان ثمة ، بوجه خاص من اراد ، لحاجات « القضية » التي يخدمها ، أن يجعل من الإستعمار وجهاً من وجوه ما لست ادري من «حركية الحضارة» ، ولكن محاولة التضليل هذه تفقد ، اكثر فأكثر ، حظها في النجاح ؛ وافضل دليل على هذا الأخفاق هو ان أكثر المتحمسين للتمسك بالعمل الإستعماري أصبح من الصعب عليهم ان يحفظوا انفسهم في مستوى تلك الكذبة .

ولن الجأ هنا إلى دليل سوى الإعتراف المجرد من الزخرف ،

هذا الاعتراف الذي يدلي به السيد ألبرسارو ، هذا الاستعماري الجامح ، الذي يقول في كتابه « العظمة والعبودية الاستعماريتان» ما يلي :

« فلنتحدث دون مواربة ودون غش . ولماذا نقنع وجه الحقيقة ؟ فالاستعمار لم يكن، منذ اول عهده، لا عملاً من أعمال المدنية ، ولا دافعاً من دوافعها . إنه عمل من أعمال العنف والقوة ، يهدف الى منفعة معينة . إنه مرحلة من مراحل الصراع في سبيل العيش، ومن مراحل المنافسة الكبرى للحياة، التي انطلقت من الافراد الى الجماعات ، ومن الجماعات الى الأمم، منتشرة في جميع أرجاء العالم . إن الشعوب التي تبحث في الاقطار النائية عن مستعمرات ، وتتمسك بها ، لا تفكر في أول الأمر الا في نفسها ، ولا تعمل الا في سبيل قوتها ، ولا تستولي على البلاد الا ابتغاء الربح . وهي تلتمس في هذه المستعمرات أسواقاً تجارية لتصريف بضائعها أوقواعدارتكاز سياسية .

« ان فكرة التمدن ليست مطلقاًهي المحرك للمغامرة المتطوعة . وهذه الفكرة تستطيع أن ترافق العملية بصورة عرضية ولكنها لا تقودها أبداً . واذا قلنا « التمدن » فاننا نقول ايضاً « الغيرية » ، وهي النية الكريمة في أن يكون الإنسان نافعاً لاخوانه بني البشر . ان الإستعمار ، في اوائل عهده ، ليس الا مبادرة صفتها المنفعة الفردية ، وحيدة الجانب ، انانية يقوم بها الأقوى ضد الاضعف . هذا هو واقع التاريخ . »

لقد قلت : استعمار ، وحملة للعنف . ولكن هذا نفسه لايكفي . بل يجب ان نقول : حملةتبلغ أقصى درجات العنف ، حملة لمحق شعب بكامله .

ولاريب في ان جميع الحملات الإستعمارية لم تفلح في تصفية الشعوب الوطنية ، ولكن مما لاشك فيه أيضاً ان هذه هي الغاية التي يؤدي اليها المنطق الصميم للمبادرة الإستعمارية ، اذا لم تمنعها الأحداث .

نشرت صحيفة «الأكسبريس» الفرنسيةفي عددها الصادر في ١٤ تشرين الثاني ١٩٥٣ ، رسالة لشخص اسمه السيد بوابيه ، من باريس . وماذا يقول هذا المراسل ؟ إنه يقارن الموقفين ، في الكومنولث البريطاني ، والمستعمرات الفرنسية . ويقول :

« ان بلاد الكومنولث لا تسكنها غير شعوب من أصل اوروبي ، مثل كندا واوستراليا وزيلنده الجديدة ، او شعوب وسيطة مثل افريقيا الجنوبية . وفي جميع هذه البلاد ، تلاشى العنصر المحلي من السكان تلاشياً تاماً ، أو أنه لم يبق موجودا الا في حالة بقايا ضئيلة . »

«والحالة تختلف عن ذلك اختلافاً تاماً في البلاد التي اردنا جمعها ، عن طريق الاهتضام ، تحت اسم الاتحاد الفرنسي . ونحن لم يسعدنا الحظ بالاستيلاء على بلاد خالية من السكان ، ولا اسعدنا الحظ بالتوصل الى محق سكانها (كذا) كما حدث في الولايات المتحدة ، وكندا ، وأستراليا . »

«والنتيجة المحتومة لهذه الوضعية هي اننا ، في مدى زمن

قصير تاريخياً ، سوف يرجونا السكان الأصليين باخلاء البـــلاد المذكورة ، حين يتوصلون الى الشعور بأنهم من الكـثرة والقوّة بحيث يستغنون عن « معونتنا » .

« ان البلاد الوحيدة التي يحتمل ان تبقى مخلصة لنـا ، هي الصحراء الكبرى الافريقية ، وذلك لسبب وحيد ، وهي انها ما تزال حتى اليوم خالية من السكان . »

ان مراسل « الإكسبريس » هو ، من وجهة معينة ، على حق فيما يقول . ان الفتك بالسكان ، بل محقهم ، هو المنطق الطبيعي للمبادرة الإستعمارية . إخلاء الأرض اخلاء تاماً . وتحويل الأراضي الواجب احتلالها ، الى صحراء خالية من سكانها الأصليين ... ان هذا صحيح جداً ، بحيث ان الأمثلة الأولى لحروب الإبادة التامة قدمها لنا المستعمرون . وهنا ليس ثمة قاعدة لجعل الحرب « حرباً إنسانية ... » ولا قانون يراعى ، ولا اتفاقيات عالمية ، ولا أسلحة يُحظر استخدامها ، ولا وسائل غير مشروعة تستبعد . ثمة شعار واحد هو : القتل ، والمحق . ان الحرب الإستعمارية هي الحرب العارية ، « الحرب القذرة » ، كما قيل عن حرب الهند الصينية ، ولكن جميع حروب المستعمرات هي « حروب قذرة . »

والقراء قليلوا الاطلاع على سير الاحداث المباشرة الاستعمارية ، سير الرواد الكبار ، التي تعود الى تاريخ لم يكن المستعمرون يهتمون فيه بالمرافعة ، ذلك لأنهم لم يكونوا يحسون بانهم ماثلون امـام محكمة الشعوب .

فالماريشال بيجو هو الذي أعلن في ١٤ أيار ١٨٤٠ ، في خطاب

له في مجلس النواب قال : « إنما يلزمنا غزو عظيم في افريقيا ، يشبه ما كان يقوم به الفرنكيون والقوط» . والقارئ يلاحظ بمن يريد هذا الماريشال الإستعماري ان يقتدي ، وهو لايرجع الى حملة الأنجيل ، ولاالى حملة الكتاب المقدس ، وانما الى الغزوات البربرية الكبرى .

اما « سان أرنو » فيكتب ، من ناحيته ، في رسالة يعلق فيها على معاركه في افريقيا قائلا :

« كنا نكتسح ونهدم ونحرق وننهب وندمر المنازل والاشجار » واليك اعترافه : « في اليوم التالي ، هبطت الى (بليدا) وكنت أحرق كل شيء أصادفه في طريقي ، وأفنيت هذه القرية الجميلة . وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وكان الحاكم قد سافر . وكانت النيران المشتعلة في الجبل تدلني على خط السير الذي تتبعه الفرقة . »

وها هو الكولونيل دى مونتانياك يقدم لنا «لامور يسير» بالعبارات التالية : **« عاش لامور يسير. هذا ما نسميه الصيد الحقيقي الذي يقوم به الصياد في براعة وتوفيق ... ان هذا الجنرال الشاب الذي لا توقفه اية عقبة ، والذي يجتاز المسافات في برهة وجيزة ، يمضي ليخرج العرب من اوكارهم ، في دائرة قدرها خمسة وعشرون فرسخاً ، ويسلبهم كل شيء يملكونه : النساء والاطفال والقطعان والمواشي الخ .. »**

« وتسألني في فقرة من رسالتك عما نفعله بالنساء اللواتي نأسرهن . فأقول اننا نحتفظ ببعضهن بمثابة رهائن ، ونبيع

الباقي لقاء الجياد او نبيعه بالمزاد كما نفعل بالمواشي . »

« وكنت احياناً افرج همومي بقطع الرؤوس ، لارؤوس الأرضي شوكي . بل رؤوس الرجال . »

واخيراً فالكونت «ديريسون» يروي ذكرياته بالعبارات التالية:

« لقد كان الزوج من آذان الوطنيين يساوي عشرة فرنكات ، وكانت نساؤهم طرائد فاخرة في نظرنا . والواقع اننا عدنا ومعنا برميل مليء من الآذان التي جمعناها ، زوجاً فزوجاً ، من الاسرى ، سواء اكانوا اعداء لنا ام اصدقاء . »

والآن ، إذا كنا لانكتفي بالاشارات الموجزة وانما نريد اللوحة كاملة ، فليس لنا الا الرجوع الى كتاب ليس بوسع اي نصير من أنصار الإستعمار ان يمحوه . كتاب وضعه رجل أسهم ، بوصفه رجلا عسكرياً ، في حملة « مدغسكر » وأصبح حاكماً للمستعمرات ، ثم نائباً . وهو فيني دوكتون . وهذا الكتاب الذي صدر عام ١٩٠٠ يحمل عنواناً له دلالته وهو : « تمجيداً للسيف » والى القارئ مقطعاً منه . انه لايلقي التبعة على رجال النظام الإستعماري وحدهم ، وانما يتجاوزها الى هذا النظام بأسره ، واضعاً إياه في قفص الاتهام :

« كانت البارجة (لاسوربريز) تنتظر قرب الشاطيء وصول الفرقة . ولقد جاء عميل وكالة السفريات البحرية (المساجيري ماريتيم) في مورونداف الى مصب نهر تسيريبيهين تلبية لدعوة ضابط الفرقة .

ان هذا العميل ، وهو السيد ساما ، الذي كان يسكن

البلاد منذ سنوات طوال ، كان يعرفها تمام المعرفة ، وكان معروفاً فيها، وله علاقات تجارية مع السكان داخل البـــلاد ، ويثق به السكالافيون ، وكان مرتبطاً ، بصورة خاصة ، «برباط أخوة الدم » مع زعيم إقليم دامبيك ، الملك « تورير » .

« وفي مدغسكر ، يجري تكريس « أخوة الدم » بـــين شخصين في احتفال تحف به بعض الرسميات. ويجرح الصدران، وتمتزج الدماء ويشرب الاخوان من المزيج . وهكذا يكون كلاهما مديناً للآخر ، منذ هذا الاحتفال ، بالاخلاص المتبادل ، والحفاظ على العهد . وأهل مدغسكر يحترمون هـــذا الميثاق ويعتقدون أن ليس بالامكان خرقه دون ارتكاب عمل غادر . »

« ذهب السيد ساما إلى أمبيك . أما البحار حامل العلم « بلوت » فقد رحل في الوقت نفسه مــــع بعض البحارة عن طريق نهر « تسيريبيهين » . ولقد أقام الملك « تورير » حفلات ضيافة باذخة لهؤلاء السادة ، وكذلك للبحارة والحمــــالين ، والخدم الوطنيين الذين كانوا يرافقونهم . وكان الملك « تورير » يثق ثقة تامة « بأخيه » ساما ، فبحث معه كيفية إعداد استقبال عظيم للقومندان الذي أعلن اقترابه من ذلك الاقليم . وفي سبيل إضفاء أهمية أكبر على هذا الحدث العظيم ، وعلى العيد بهجة أعم ، دعا الملك « تورير » الى امبيك جميع وجهاء الاقليم وأبرز الوجوه من جيرانه ، وجاء هؤلاء مع راياتهم ومع الكثير من الموسيقيين عازفي الفاليتا ، وقارعي الطبول . فكانوا ينشرون في الاحتفال جواً من الحماسة والمرح .

وفي صباح ٢٩ آب ، علم القائد البحار بلوت والسيد ساما أن الفرقة الفرنسية قد وصلت إلى مسيرة ساعتين فقصدا الى معسكرها . وكانا يظنان أنهما سوف يعودان في اليوم نفسه إلى أمبيك ويتركان الخدم هناك ، وكذلك أمتعتهما وأثاثهما القليل . وعند اجتماعهما بالقومندان جيرار ، أنبآه بالموقف الطيب في البلاد . ولكن القومندان ، وكأنه لم يفهم أقوالهما ، نبه قائد البحارة أن عليه ، في اليوم التالي، ان يشترك في الهجوم مع بحارته . لقد بدأ الجنرال غالياني حملته في ايمرنا بضربة موفقة ؛ وكان القومندان جيرار يريد أن يؤكد بضربة مماثلة استيلاءه على « الميناني » . فصرخ بلوت ورفيقه محتجين ظناً منهما أن ثمة سوء تفاهم . وعندئذ كرر القومندان أوامره بلهجة حاسمة لا تقبل الرد . وبالاضافة إلى ذلك ، امر بأن يسجن التاجر وقائد البحارة ، في المعسكر ، لكي يمنعهما من العودة الى المدينة وانذار السكان . وبعد لحظة ، جاء الملك « تورير » بدوره راجياً تقديم فروض الولاء ؛ فرفض جيرار استقباله وامر بان يجاب بأن « القومندان سوف يحمل بنفسه الأوامر الى المنطقة »

« وفي منتصف الليل ، بدأت الجيوش تسير . وكانت تتقدم سراً عبر الغابات والأدغال الكثيفة الواقعة قرب امبيك، واحاطت بها في صمت .

واحتلت المدفعية موقعاً تستطيع منه ، عند اللزوم ، تدمير المدينة وسحقها . وفي الصباح الباكر ، ومن ست جهات معاً،

دخل المهاجمون الى المدينة النائمة. واقتحم السنغاليون المنازل، وبدأت المجزرة . والسكان، وقد فوجئوا بالهجوم ، ودون ان تكون لديهم وسائل للمقاومة ، ذهبوا جميعاً ضحية الحراب . وخلال ساعة ، ظل اولئك الذين لم يقتلوا من الضربة الاولى ، يحاولون الفرار . وكنا نراهم ، وفرقتنا السوداء تطاردهم ، مسربلين بدمائهم التي تسيل من جراحهم الطرية ، يركضون كالمجانين ، ثم يدركهم الجنود ويطعنونهم مجدداً ، فيدوسون مترنحين على اجساد رفاقهم او ينطلقون ليموتوا على حد الاسلحة الفتاكة التي يحملها الجنود الاحتياطيون الكامنون على الابواب . والملك « تويو » ، والوجهاء ، وجميع السكان سقطوا جميعاً تحت طلقات الرماة في تلك الصبيحة ؛ وكانت الاوامر قد صدرت الى الرماة بأن لا يقتلوا سوى الرجال ، ولكن حين تجاوزوا هذه الاوامر لم يردعهم احد ، فلقد اسكرتهم رائحة الدماء ، ولم يرحموا امراة ولا طفلاً .ان خدم السيد ساما وحماليه ، وقد اختلطوا بالسكان ، شاركوا هؤلاء في مصيرهم . وحين ارتفعت شمس الضحى ، لم تكن المدينة سوى كومة فظيعة من الجثث يهيم الفرنسيون في ثناياها . وقد اجهدتهم كثرة الضرب . وكان ثمة عدد منهم يحس بأنه يكاد يختنق من الخجل . وكان اولئك هم بحارة « السوبريز » الذين كانوا ، على الرغم منهم ، السبب في اغتيال الناس الذين احتفوا بهم في الليلة السالفة ، واضافوهم ؛ وكذلك بعض الضباط والجنود من الجيش ، الذين كانوا معتادين على الحرب

الطاحنة القاسية ، ولكنهم لم يرضوا الا مكرهين بالدور الذي فرض عليهم فرضاً »

« واعلنت الابواق شارة التجمع ، ودعا صفوف الضباط الى الاجتماع : فلم يكن ثمة جندي واحد من جنودنا غائباً . واستراح الجنود ، وتناولوا الطعام ، ولكن لم ترتفع الأغاني المرحة تمجيداً لهذا الانتصار . وعند الأصيل ارتفع ضباب خفيف ، بسبب الحرارة ؛ وكان ذلك هو دماء الضحايا الخمسة الآلاف ، وروح المدينة الذي يتبخر عند المغيب ، وحين انسدلت ظلمات المساء ، كانت تخرج آهات تصعدها شفاه الجرحى الذين أُجهز عليهم اجهازاً سيئاً ، من تحت ركام الجثث . وحسب احـــد الفرنسيين ان الاعمال التي قام بها الجيش اضحت كافية ، فطلب الأذن بالسماح له بانقاذ الاحياء من الجرحى ، فلم يحصل عـلى هذا الاذن . وفي الليل مات الجرحى . »

« ان عدد الضحايا ، الذي قدره البعض بحوالي الخمسة آلاف ، ذهب البعض الى انه ألفان وخمسمائة على الاقـــل . اما التقارير الرسمية فقـد كتمت هذه الفظائع بعناية . واكتفت « الجريدة الرسمية » بالقول :

« ان الملك توير ، ووزيره ، وزعيمان آخران ، قد قتلوا اثناء المعركة »

واضافت الجريدة الرسمية : « وقـد وقع في ايدينـا ٥٠٠ اسير » والحقيقة هي انه لم يسلم وطني واحد من اهالي تلك المنطقه » .

تلك هي الحرب الإستعمارية ، في كل فظاعتها ، وفي كل حقيقتها .

وهكذا — اذن — فأول وجه من وجوه العمل الاستعماري إنما هو العنف ، والوحشية ، والبربرية . ولكن ثمة وجه آخر هو إيضاً وجه أساسي من وجوه الإستعمار . ونعني هذا الوجه الذي هو ايضاً بربري وحشي ، النهب والسرقة .

ونستطيع ان نثبت بمثابة قاعدة مطلقة ان ليس ثمة ابداً حركة استعمار بدون نهب . بل بوسعنا القول ان الاستعمار هو الشكل الحديث للنهب . والواقع اننا حيث نجد الإستعمار نجد ايضاً الطرائق نفسها، وانطلاق أحط غرائز الجشع . وانت اذا بحثت سواء في الأنتيل او في افريقيا الشمالية أم في افريقيا السوداء، اذا بحثت عن أصل الملكية الاوربية في هذه البلاد وجدته واحداً في جميع الأحوال : السرقة والنهب .

نظام النهب والاستثمار

●

هذه العملية سهلة الى ابعد حدود السهولة : يصل المستعمرون الى بلد ، ويقتلون جميع سكانه ، ويستولون على الأراضي – وهذا بالضبط ما حدث في جزر الأنتيل بعد المجزرة الشاملة التي ذهب ضحيتها الكاراييب . أو انهم إذا لم يقتلوا جميع الناس ، فانهم يطردون المغلوب ، الذي بعد ان كان مالكاً لأراضي البلاد ، يتحول الى كادح أجير ، ويعود ، إذا لزم الأمر ، ليعمل بصفته فلاحاً اجيراً على الأرض التي كان ، الى امس القريب ، مالكها الحر .

ولنأخذ الجزائر مثلا ، فهي مثل نموذجي . فمن اصل عشرين مليوناً من الهكتارات ، ثمة ٨٠٠٠٠٠ اوروبي ، يعني أقل من عشر السكان ، يملكون ١١ مليوناً و ٦٠٠٠٠٠ هكتاراً . ومفهوم أن هذه الأراضي تتمتع بأفضل المواقع ، كما انها اغنى انواع الأراضي في الجزائر . اما الجزائريون ، وعددهم تسعة ملايين ، فيملكون تسعة ملايين ومائتي ألف هكتار ، من الأراضي القليلة الخصوبة القائمة في اسوأ المواقع . إذن ، فعشر السكان ، وهو

الشطر الأوروبي المستعمر ، يملك اكثر مما تملك التسعة الأعشار الاخرى ، المؤلفة من الجزائريين أصحاب البلاد .

وتدل الإحصاءات على ان ثمة ، من أصل الملاكين الجزائريين ، مليون وثلاثماية ألف شخص فقط يملك كل شخص منهم هكتارين بصورة وسطية ، على حين ان ثمة ، من أصل الخمسة والعشرين ألف ملاك اوروبي ، ٧٥ ٪ منهم يملك الواحد منهم أكثر من ١٠٠ هكتار بصورة وسطية ، يعني ٣٠٠ هكتاراً بصورة وسطية . **وبعضهم يملك اراضي تتراوح مساحتها بين العشرة آلاف هكتار والخمسة عشر الف هكتار .**

مستعمر اوروبي واحد يملك عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف هكتار من الأرض ! كيف أصبح هذا ممكناً ؟ ومن محاسن الصدف أننا نعلم كيف أمكن ذلك ، وبصورة دقيقة جداً . وإليك في هذا الخصوص معلومات تكشف عن اسرار القضية ، إنها رسالة من الجنرالة « برو » إلى شقيقها ، بتاريخ ١٨٣٤ : « وتسألني أين توصلنا في استعمار الأراضي . فأخبرك انه حتى الآن ، قد توقف هذا الاستعمار عند حدود المضاربة بالملكيات كما يضارب التاجر بالأوراق المالية والسندات في البورصة . فهنا يقامر المستعمرون على الأراضي ، كما يقامرون في البورصة على المداخيل ، والخمر والقهوة . ولسوف تعجب اكبر العجب إذا علمت ان « بليدا » قد تداولتها ايدي الآلاف من المستعمرين قبل ان نستولي عليها نحن . وهؤلاء السادة يلذ لهم ان يشاهدوا املاكهم الواسعة ، بواسطة المناظير ، رغم تحملهم مع ذلك مشقة السير ثلاثة فراسخ على

الأقل لوضع مناظيرهم ومراقبهم على أرفع القمم المجاورة . وكثيرون لم يتح لهم حتى هذه النعمة . ولم يتعرفوا إلى الأراضي التي يملكونها ، فاكتفوا بالذهاب إلى كاتب العدل ليشتروا اراضي ارتكازاً على احاديث . ان سهل ميتيجا ، وهو مستنقع طوله خمسة وعشرون فرسخاً تقريباً وعرضه اثنا عشر ، قد بيع ايضاً . فلم تبق أمامنا من حيلة ، سوى ان نتجشم مشقة الإستيلاء على أراضي طائفة من الدهماء من اهل البلاد الحفاة العراة ، الذين سوف نستخدم الجيش لطردهم خارج اراضيهم .. »

« واجمل ما في هذه القضية ، انه اذا كان سهل الميتيجا يبلغ الخمسة والعشرين فرسخاً طولا وعرضه اثنا عشر فرسخاً ، فقد بيع منه مساحة تكبره بثلاثة اضعاف على الأقل ، بحيث أنه يجب ان نبذل جهدنا للتخلص من هذه الورطة . وهؤلاء المستعمرون المحترمون ، الذين تتألف غالبيتهم من مجرمين فروا من السجون او من اشخاص على أهبة الدخول اليها ، يرهنون اراضيهم بدلا من زراعتها ، ويقامرون بها ، وهذا ما جعل الأراضي المحيطة بالجزائر بوراً منذ زمن طويل ، باستثناء قليل منها . لذلك ندفع ثمن الملفوفة فرنكاً ، والجزرة فلساً ، والليبرة من الزبدة الرديئة فرنكين ونصف .

« وما يزدهر ، في كل مكان ، إنما هي الحانات . فهي منتشرة في جميع الزوايا وفي جميع النواحي . والتنافس يجري على نهب الجندي المسكين وتجريده من ماله . ومنذ ايام ، خرج احد الجنود من الحانة دون قميص ، نظراً لحرص صاحب الحانة المستعمر

على اخذ الضمانات اللازمة ... »

وهذه الرسالة تضع بين ايدينا وثيقة تسمح لنا بأن ندرك واقع هذا النهب الذي كان ضحيته شعب بكامله ، وامة بأسرها .

بيد ان ما حدث في الجزائر لا يشكل حالة استثنائية . **بل هو القاعدة ، على العكس** . وهذه القاعدة هي التي جرى تطبيقها في كل مكان نزل اليه الإستعمار الفرنسي الغاشم الضاري : في الأنتيل ، وفي مدغسكر ، وفي افريقيا السوداء .

ففي مدغسكر نال الفرنسيون ١٥٤١١٤٨ هكتاراً ، ومنح الأجانب الآخرون ٩٨٣٥٥ وهذا ما يشكل ١٦٣٩٥٠٣ هكتارات من الأراضي الزراعية ، بمثابة هبات ، وهذه الأراضي نهبت من اهالي مدغسكر . فاذا اضفنا الى ذلك ما نهب من اراض منجمية وحرجية ، بلغ المجموع تقريباً ٤ ملايين هكتار من الأراضي الغنية ، التي سرقت بصورة مكشوفة بينة ، من الأهالي الوطنيين .

وكذلك حصل في افريقيا السوداء .

* * *

ولكن قد يقال : « هذا كله كان يحدث في الماضي ! نعم ، إن العمل الإستعماري ، كان في الماضي البعيد قاسياً عنيفاً ، وكان نهباً واغتصاباً ، ولكن هذه كلها قصص قديمة ! »

« وهذا ما يعرف باسم « الأخطاء المحتومة » التي تلازم كل عمل . ففي البدء كانت البربرية ، أما اليوم فالشعوب المستعمرة تستفيد من « تمدن » المستعمرين . »

كلا ! هذا خطأ ، وضلال : إن الإستعمار لم يستطع ولا

يستطيع ان يغتسل من أدرانه الأصلية ، نظراً إلى انه سجين منطقه الخاص. إنه قد نشأ عن العنف والسرقة والوحشية ، فلا يستطيع ان يعيش إلا بالعنف والسرقة والوحشية .

السرقة ؟ اليكم الكيفية التي ينزل فيها، عام ١٩٥٣ ، مستعمر فرنسي في أرض الأوبانجي – شاري . ولنترك الكلام لبوغاندا، نائب هذه المقاطعة : « حين يريد مستعمر جديد ان يسكن في اوبانجي–شاري ، فانه يختار الأرض التي يريدها ، سواء أكانت مأهولة ام غير مأهولة ، وسواء كانت تشكل ملكية الأسر أو القبائل او العشائر ؛ وحول مأدبة بسيطة، تُسوّى جميع الأمور...

« اما مالك الأرض الحقيقي فهو آخر من يعلم . فهو لا يُسأل عن رأيه . وحين يكون ثمة مسكن قائم على الأرض التي اشتهاها الفرنسي ، فقد يتنازل هذا ويدفع للملاك السابق مبلغاً ضئيلا من المال (يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ فرنك، وذلك لقاء مساحات تبلغ الخمسماية هكتار او الألف هكتار ، يضاف اليها المنزل . ويسمى هذا المبلغ في اوبانجي شاري ، « تعويض عن الطرد » وفي كثير من الأحيان، تصاحب دفع المبلغ للمستحق تهديدات وضربات بالسياط ، فاذا « تمرد الزنجي القذر » ، جاء جنود الجمهورية الفرنسية وهدموا المنزل على رؤوس أصحابه ...

« وحتى في بانجي نفسها ، جرى ترحيل السكان الأصليين ، وقد دمرت مساكنهم خمس مرات في عشرين عاماً . وليس نادراً ان نرى افراداً يُطردون من املاكهم لمصلحة أحد الأوروبيين ، سواء أكان فرنسياً أم لم يكن ، وهو قد صل حديثاً إلى المنطقة ، وجاء

باحثاً عن منزل وأرض ... »

هذا عن السرقة . وكما نرى فليست القضية قضية اعمال قديمة تاريخية اذا صح التعبير ، بل انها اعمال حالية ، يومية ، تؤلف جزءاً من الواقع الإستعماري .

والآن نتحدث عن العنف والإرهاب . هل هناك من يشك في ان قضية العنف والإرهاب والمجازر ، والمحق ، هي امر حالي حديث يجري كل يوم؟ يكفي ان يصغي الإنسان الى الأنباء الواردة من الجزائر : ففي كل يوم ، تذبح القوات الفرنسية ، وقوات حلف الأطلسي ، المئات من ابناء الشعب العربي في الجزائر . اما الضحايا الذين لا يعلم بموتهم احد فأكثر من هذا العدد بكثير . والعمليات الحربية التي تجري في جميع انحاء هذا البلد العربي الباسل الخاضع لطغيان استعماري غاشم احمق ، تجر في ذيولها فظائع لا تماثلها فظائع الحرب الكبرى الثانية ولا «افران» هتلر ، ولا مجازر فارصوفيا ، ولا عار «أورادور» . ورغم ذلك فالشعب الجزائري العظيم يحتشد اكثر فاكثر ، وتحركه انتفاضة بطولية جبارة ، وينهك الأربعماية الف جندي من جيش المستعمرين الفرنسيين ، ويسدد اليهم الضربة تلو الضربة ، عازماً على نيل استقلاله كاملا ، بوصفه شعباً مستقلا حراً ، ولسوف يجعل من معركته التحررية هنداً صينية ثانية ، ولسوف يكون نضاله هو حتف الإستعمار :

وأخيراً ، وتكفينا بعض الأرقام والتذكير ببعض الأحداث لكي نثبت الإندماج الكلي التام بين الوحشية الدموية وبين « الرسالة التمدينية لفرنسا » :

سقط عام ١٩٤٥ : ٤٥٠٠٠ قتيل في الجزائر .

وفي عام ١٩٤٧ ذبحت القوات الفرنسية ٩٠٠٠٠ شخص من سكان مدغسكر .

وفي عام ١٩٥٠ : اغتيل ٤٧ مناضلا ديموقراطياً في « شاطئ العاج » ، واعتقل ٤٠٠٠ مناضل — واضرب صفحاً عن الإستمرار في ذكر الأرقام والفظائع ، فالحوادث معروفة كلها والصحف تعج بهذه « المفاخر » التمدينية ...

(* * *

ويفخر المستعرون بالإصلاحات و «العناية الصحية»... ولعل بعض الأرقام السريعة ان تعطي القارىء فكرة واضحة عن هذه العناية التي يصح ان نسميها «المعونة لحفاري القبور» إذ لا يفيد من تلك « العناية الطبية الصحية » سوى هؤلاء :

في النيجر : ثمة لمليوني شخص : ٧ أطباء .

وفي الفولتا العليا : ثلاثة ملايين شخص « يُعنى » بهم ٨ اطباء..

اعود فاردد ما قلت : إن الإستعمار لم يمت . ومن اجل ان يعيش، يبدع في ابتكار الوسائل والأشكال. ولكن قبضة الشعوب تنهال عليه ، قاصمة ، قاضية ، في كل مكان .

ومهما يكن من امر ، ومهما كانت براعته في تجديد قواه ،

فان زمانه قد ولى،وحينه قد حان.لقد تصدعت اركانه وانهارت بعض جنباته .

وكيف يكون الأمر على غير هذه الصورة ؟ فلقد نهضت ضده في ارجاء العالم ، قوى هائلة جبارة ، وهي قوى الشعوب المستعمَرة التي تنمو كل يوم اكثر فأكثر،وتنضم الى ذلك المعسكر العظيم ، معسكر الديموقراطية ، والسلم ، والتحرر الوطني .

ايمه سيزار

ـ انتهى ـ

الفهرست

السلسلة الكشفية

السلسلة الكشفية

١ – المراحل الاولى في الكشفية الدرجة المبتدىء تعاليم دولية علي خليفة الزائدي ٧٥

٢ – » » » » » » » » اسلامية » » ٧٥

٣ – » » » » » الدرجة الثانية » » ١٠٠

٤ – نظام الطلائع رولان فيليب ٥٠

٥ – كيف تدير الطليعة جان لويس ١٠٠

٦ – دليل القائد بادن باول ١٢٥

٧ – كيف تدير فرقة علي خليفه الزائدي ١٥٠

٨ – العاب كشفية بادن باول ١٠٠

٩ – الاوسمة الكشفية علي خليفه الزائدي ٥٠

١٠ – الاناشيد والصيحات الكشفية » » » ١٥٠



منشورات مكتبة المعارف في بيروت

شارع المعرض – بناية الغندور

طابق اول

ص. ب. ١٧٦١ هاتف ٢٨٨٠١

الثمن ١٠٠ ق. ل. يطلب في مصر من مكتبة الخانجي بالقاهرة